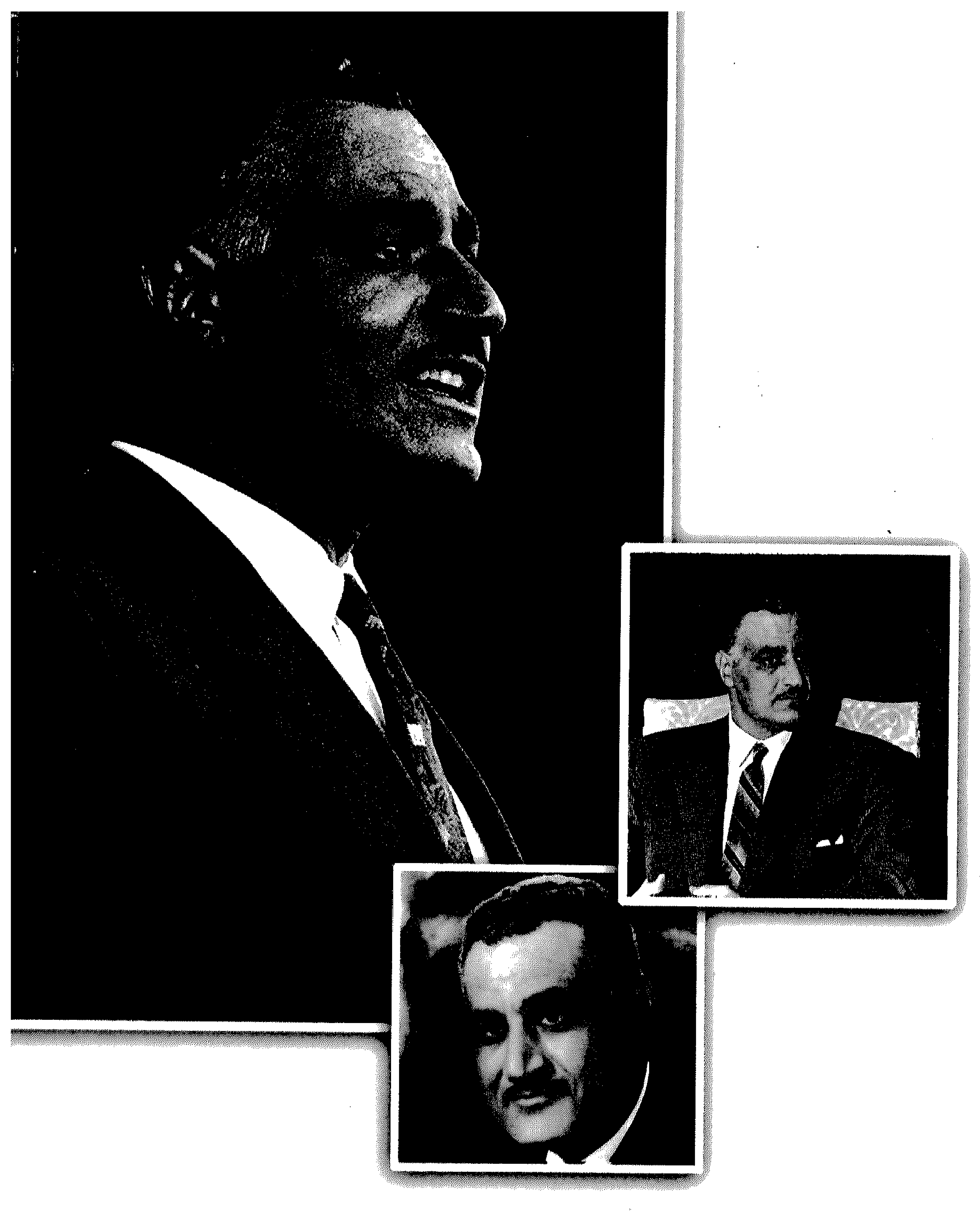


مشوارى مع عبد الناصر

تأليف أ.د. منصور فايز

مشــوارى
مــع عبــد النــاصر

الطبعة الأولى

بيت العرب للتوثيق العصرى والنظم
القاهرة ٦ شارع زكريا رزق - الزمالك
ت: ٧٣٥٣٠٨٩ - ٧٣٥٤٦٨٩ فاكس : ٧٣٥٥٢٤٩

د. منصور فايز

مشــوارى
مــع عبد النــاصر

مقدمة

شاءت الظروف أن أكون الطبيب المعالج للرئيس الراحل جمال عبد الناصر منذ ١٩٦٣ وحتى رحيله، وهو تكليف لا يحسد عليه أحد، فالمسئولية كانت ضخمة بلا حدود، بقدر ضخامة الدور السياسى الذى كانت تقوم به مصر فى المنطقة العربية، وفى العالم الثالث فى مرحلة الستينيات، وبقدر ضراوة التحديات التى كان يواجهها جمال عبد الناصر فى إدارته لدور مصر التحررى.

كانت الأحداث الكبار كثيرة لا تترك لجمال عبد الناصر فرصة للراحة، وكانت تتوالى مشحونة بالتوتر والانفعالات. وحتمًا كان يترجم ذلك فى النهاية إلى مسئولية جسيمة على كاهل طبيبه الخاص المسئول عن صحته، وعن مقدرته على مواجهة تلك الأحداث وهو فى قمة لياقته البدنية والذهنية.

ومن هذا الموقع كان طبيعيا أن أعايش من قرب أحداثًا لها دلالاتها الكبيرة فى تاريخ مصر المعاصر، خاصة وأننى كنت قبل ذلك الطبيب المعالج للفريق محمد حيدر القائد العام للقوات المسلحة قبل الثورة، وعلى ماهر الذى كلف بتشكيل أول وزارة بعد الثورة.

ولكننى إذا لم أفكر فى تسجيل الأحداث كما رأيتها وكشاهد عليها، ربما لكونى «طبيبًا» بطبيعتى وبتكوينى وبحكم مهنتى. وأول صفات الطبيب هى الكتمان لا الرواية، وربما لأننى لست سياسيا أسعى لمناصرة هذا الفريق أو ذلك بما يؤيد وجهة نظر أو ينفيها.. وربما بحكم اقتناعى بأن التاريخ له من يتحملون مسئولية تسجيله

بأمانة بعد التيقن مما يذكرونه من وقائع ، حتى وإن كانت الساحة من حولنا ملأى بمن يفيضون فى رواية وشرح أحداث لم يعيشوها أو يقحمون أنفسهم على وقائع التاريخ دون التيقن من ملابساتها .

إلا أننى تابعت خلال سنوات مضت تفسيرات مغرضة لقرارات ومواقف اتخذها جمال عبد الناصر يحاول بها البعض أن يرجعوا صدورها إلى حالته الصحية للتشكيك فى هذه القرارات ، أو التقليل من أهمية هذه المواقف .

وعند هذا الحد شعرت بأن تسجيل الحقائق المتصلة بصحة جمال عبد الناصر - بوصفى الطبيب المسئول عن علاجه - أصبحت مطلوبة ، ولكن طبيعة من كنت أعوده كزعيم بارز فى العالم العربى وقرب موقعى منه وملازمتى له سنين عديدة ، فرضت على قلمى ما لى به دراية من أحداث ، فقصرت الحديث على ما جرى منها أمامى ، وعلى ما رواه لى جمال عبد الناصر نفسه ، دون الرجوع إلى أى مصدر آخر ، فلست ناقدًا أفند أخطاء ، ولا مؤرخًا أتقصى الوقائع .

د. منصور فايز

نهاية عهد وبداية ثورة

فى أعقاب ما أسفرت عنه حرب فلسطين ١٩٤٨ كان المناخ السياسى فى مصر مضطربًا، وكان الكثيرون ممن يتابعون الأحداث بحكم اهتماماتهم العامة يشعرون بقرب أحداث كبار، وإن لم يستطيعوا تحديد طبيعتها أو اتجاهها؛ فالآمال القومية لشعب مصر فى الاستقلال والتحرر بقيت بعيدة المنال برغم تصاعد الحركة الوطنية الشعبية وتبلورها وتزايد إيجابياتها عبر المراحل المختلفة منذ ثورة ١٩١٩ .

وكانت الساحة السياسية إزاء فشل أركان النظام السياسى القائم حينئذ فى تحقيق أهداف الشعب، قد شهدت مولد حركات ومنظمات سياسية غير معترف بها رسميا، ولكن نشاطها المؤثر من خارج إطار الشرعية كان يشير إلى أن الحركة الوطنية قد تجاوزت إمكانيات النظام القائم؛ خاصة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وقد اتجه الصراع السياسى للتركز فى منطقة القناة بين قيادة القوات البريطانية فى الشرق الأوسط وحشود الجيش البريطانى فيها، التى كان مخططها وتحركاتها ينبئان بنوايا بعيدة عن منح مصر لاستقلالها، وبين حركة الفدائيين المصريين الذين كانوا يمارسون عمليات عسكرية انتحارية ضد القوات البريطانية، ونشاطًا سياسيا يدعو إلى المقاطعة الاقتصادية للبريطانيين والامتناع عن العمل فى معسكراتهم. وقد حصل هذا النشاط على تأييد حكومة الوفد القائمة حينئذ والتى قامت بتوفير العمل للعمال الذين تركوا عملهم فى المعسكرات البريطانية .

وفى تلك المرحلة الحرجة، لم يقم الملك بأى دور لتحقيق آمال الشعب، بل على العكس شهدت هذه المرحلة تقاربًا بين الملك والإنجليز بعد أن كانت العلاقات قد

ساءت بينهما بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، وفقد القصر شباب الضباط الذين تعاطفوا معه منذ ذلك اليوم.

ففى يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ قدم السفير البريطانى إنذاراً للملك يطلب فيه تعيين مصطفى النحاس (رئيس حزب الوفد) رئيسًا للوزراء، واستسلم الملك بعد أن رأى الدبابات تملأ ساحة قصر عابدين. حدث ذلك فى أثناء الحرب العالمية الثانية بعد أن رأى الإنجليز أنه من دواعى الاستقرار فى المنطقة وجود رئيس حزب الأغلبية فى الحكم.

وزاد الأمر سوءاً أن صار فساد القصر على كل لسان، ومن ذلك سهرات الملك فى لعب الميسر فى الأماكن العامة والدور الذى لعبه المحيطون به من فساد وإفساد حتى بلغ الأمر أن صار «شماشرجى» الملك ـ محمد حسن ـ مسموع الكلمة لدى الحكومة.

بل وصل الأمر بالملك أن اشترى بواسطة عملائه أسلحة فاسدة للجيش فى أثناء حرب ١٩٤٨، ولم تكن أخبار فضيحتها خافية على أحد.

وفى هذا الجو الملبد لا يمكن استبعاد أن يستمع الملك للإنجليز حينما أقنعوه بضرورة افتعال حدث كبير يبرر إقالته لآخر وزارات الوفد التى كانت قائمة حينئذ تحقيقًا لمصالحهما المشتركة وذلك بعد أن ألغى مصطفى النحاس (معاهدة ١٩٣٦) التى كانت تنص على بقاء الاحتلال البريطانى فى منطقة قناة السويس بعد انسحابه من جميع المواقع التى كان يحتلها.

وكان أن قدرت بريطانيا أن يكون مسرح هذا «الحدث الكبير» هو منطقة القناة التى تتركز فيها معركة الفدائيين والحركة الوطنية معهم. واستغلت بريطانيا إبعاد الحكومة للجيش المصرى عن منطقة المواجهة بين الحركة الوطنية وقوات الاحتلال تاركة مسئولية مواجهة الجيش البريطانى فى منطقة القناة على عاتق قوات الشرطة غير المجهزة أو المسلحة لمثل هذه المواقف، وحاصرت القوات البريطانية مبنى بلوكات النظام فى الإسماعيلية مطالبة بنزع سلاح قوات الشرطة وذلك ردا على أعمال الفدائيين التى كانوا يقومون بها ضد الإنجليز. ولما رفض رجال الشرطة ذلك هاجمت القوات البريطانية المبنى بالدبابات والمدافع الثقيلة، وأسفرت المذبحة عن

مقتل خمسين من جنود الشرطة المصريين غير المسلحين إلا بالبنادق القديمة والذين قاوموا ببسالة حتى نفدت ذخيرتهم. ومنذ ذلك الحين أصبح ذلك اليوم وهو يوم ٢٥ يناير عيداً للشرطة.

وثبت إلى أى مدى أخفق الإنجليز والملك فى تقدير أبعاد الموقف السياسى فى مصر.. فالحدث الذى أرادوا به تغيير الحكومة عجل بنسف النظام بأكمله!

ففى اليوم التالى (٢٦ يناير ١٩٥٢م) قامت المظاهرات معبرة عن غضب الشعب واشترك فيها جنود بلوكات النظام وانتهت إلى حريق القاهرة المروع. وفى الشهر التالى سقط حسين سرى عامر مرشح القصر فى انتخابات نادى الضباط أمام مرشح الضباط فى دلالة لا تخطئها عين لدخول الضباط الأحرار فى قلب الصراع السياسى ضد القصر وسيطرتهم على من هم دون كبار الضباط من قادة الجيش المصرى.

وعلاوة على ما تقدم لم تشهد الفترة ما بين حريق القاهرة وقيام الثورة أى استقرار سياسى؛ فقد تعاقب تشكيل أربع وزارات خلال ستة شهور وكان آخرها وزارة نجيب الهلالى التى لم تدم سوى (٢٤ساعة).

الفريق محمد حيدر ومقدمات الثورة

ومن بين التطورات ذات الأهمية في داخل القصر حينئذ أن تدهورت العلاقات بين الملك والفريق محمد حيدر القائد العام للقوات المسلحة، الذى كان يتمتع بثقة الملك وتأييده لسنوات طويلة.

وكان الملك قد أنشأ منصب القائد العام للقوات المسلحة خصيصًا للفريق حيدر حين أصر النحاس فى إحدى الوزارات التى شكلها، على أن يكون جميع وزرائه من الوفديين بما فيهم وزير الحربية.

ولقد أحس حيدر فى الفترة الأخيرة - وكنت طبيبه الخاص - بأنه لم يعد موضع ثقة الملك. بل بدأ يستشعر المهانة من تصرفات الملك معه، وكان الأخير يعمد إلى السخرية منه أمام الآخرين؛ ومن ذلك أن تلقى حيدر من الملك هدية، وحين شرع فى فتحها وجد أمامه صندوقًا كبيراً، فلما فتحه وجد بداخله آخر، واستمر هكذا

يفتح صندوقًا من بعد صندوق، حتى فتح الأخير فقفزت فى وجهه ضفدعة كانت حبيسة فيه!

شعر حيدر بأن أسهم حسين سرى عامر - المعروف بالشدة والصرامة - والذى كان يشغل منصب مدير سلاح الحدود، آخذة فى الارتفاع عند الملك، وأنه سوف يخلفه فى منصبه. وسيطر على حيدر شعور بأن الملك سوف يعمد إلى التخلص منه ولو أدى ذلك إلى اغتياله - على حد ما فهمت من حيدر - ولا عجب فى ذلك فحيدر يعلم أن الملك قد كون فريقًا من الضباط أطلق عليهم اسم الحرس الحديدى لاغتيال الشخصيات غير المرغوب فيها.

وكان مما ساعد الفريق حيدر على هذا الاعتقاد أمرين :

- **الأول:** أن شعبيته فى الجيش أصبحت واسعة - بل إن شعبيته تجاوزت الجيش إلى الشعب. وفى هذا المجال ذكر لى واقعة ذات دلالة حين ذهب حيدر إلى السينما يومًا ليحضر عرضًا من الثالثة إلى السادسة مساءً، وعند خروجه من دار السينما التف حوله المدنيون فى مظاهرة تهتف بحياته.
- **الثانى:** أن الفريق حيدر كان مريضًا بتليف بالكبد، وعادة ما يؤثر هذا المرض على سلامة التقدير ويؤدى إلى تضخيم الأمور فى كثير من الأحيان.

نتيجة لذلك كله لم يكن الفريق حيدر فى المرحلة التى سبقت الثورة مباشرة متحمسًا للملك، فقد حدث أن استدعى إبراهيم عبد الهادى - وكان رئيسًا للوزراء - جمال عبد الناصر وسأله عن تنظيم الضباط الأحرار وعلاقته به ولكن حيدر طمأن إبراهيم عبد الهادى وأبعد أى شبهة عن جمال عبد الناصر.

يضاف إلى ذلك أن الفريق حيدر لم يعط لسقوط مرشح الملك فى انتخابات نادى ضباط الجيش أية أهمية برغم دلالات هذا الحدث الكبير، وما كان يفترضه من إحكام السلطة للرقابة على الجيش والضباط.

وفى اليوم السابق ليوم الثورة وبينما كان أحد الضباط الأحرار يودع عائلته قبل نزوله إلى موقعه المحدد فى خطة تنفيذ الثورة، أن أفصح لهم - تحت ضغط انفعال الموقف - أنه فى سبيله إلى الاشتراك فى عملية كبرى بغرض طرد الطاغية فاروق،

وحين علم أخاه بذلك – وكان من كبار القادة فى سلاح الطيران – بادر بالاتصال بالفريق حيدر فى الإسكندرية وأبلغه بما حدث. والغريب أن حيدر لم يول هذه المعلومات الخطيرة أى أهمية، ولم يثبت بعد ذلك أنه أتى حيالها بإجراء فورى يتناسب مع درجة خطورتها.

ومجمل القول أنه ربما كان لتراخى حيدر أثناء الفترة التى سبقت قيام الثورة أثره فى سرعة نجاحها وعدم الكشف المسبق عن تنظيم الضباط الأحرار.

وفى تلك المرحلة كان تنظيم الضباط الأحرار قد اكتمل وأصبح قادراً على القيام بالثورة، وحين أحس جمال عبد الناصر باحتمال تعيين حسين سرى عامر وزيراً للحربية عمد على تقديم موعد الثورة؛ خشية منه على تنظيم الضباط الأحرار، وتوقيًا من كل الاحتمالات.

ولقد روى لى الفريق حيدر – بعد قيام الثورة – أنه كان يعرف جمال عبد الناصر وصلاح سالم جيداً، وأنهما كانا من الضباط الأكفاء، وأن الأخير قد عمل بمكتبه لفترة قبل الثورة؛ بل لقد زاد على ذلك فى مرة أنه كان يعلم بعضويتهما فى تنظيم الضباط الأحرار!

وبعد قيام الثورة لم تحدد إقامة (الفريق حيدر) كما حدث بالنسبة لأقطاب النظام السابق، وقد أبلغنى أنه يعامل معاملة طيبة من الرئيس جمال عبد الناصر شخصيا، وأدخل مستشفى الكاتب حين مرض، ولا تجد تلك المعاملة تفسيرها فى كون (الفريق حيدر) خال المشير عبد الحكيم عامر؛ فذلك لم يكن موضع اعتبار كثير من رجال الثورة والمشير عامر فى مقدمتهم.

ومن الشواهد على ذلك أنه حين أخرج زوج ابنة الفريق حيدر من وزارة الخارجية فى حركة التطهير طلب مقابلة المشير عامر الذى رفض لقاءه، فالتحق بخطوط الطيران السعودية فى لندن وظل موظفًا بها إلى أن لقى ربه.

وحين توفى (الفريق حيدر) بغيبوبة كبدية نتيجة تليف الكبد، شيع جثمانه إلى مثواه الأخير على عربة مدفع يحيط بها الجنود فى جنازة عسكرية رسمية، بالرغم من أنه كان يعد من رجال الملك.

على ماهر وثورة يوليو

في صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أعلن الضباط الأحرار قيام الثورة التي كانت أهم الأحداث التي عاشتها مصر في تاريخها الحديث، وقادت إلى أعمق التغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها البلاد منذ عصر محمد على.

وقوبل النبأ بابتهاج شعبي عارم، وتفاءلت الجماهير ببرنامج الثورة ذي النقاط الست الآتية :

١ - القضاء على الاستعمار وأعوانه.
٢ - القضاء على الإقطاع.
٣ - القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال.
٤ - إقامة عدالة اجتماعية.
٥ - إقامة جيش وطني قوي.
٦ - إقامة حياة ديمقراطية سليمة.

وكانت هذه المبادئ التي تضمنها بيان الثورة، أهدافًا طالما رنت إليها الحركة الوطنية المصرية، طوال عهود سبقت.

ولم تجد الثورة مقاومة تذكر فقد كانت خطة الثورة التي وضعها (البكباشي) جمال عبد الناصر - المدرس بكلية أركان الحرب في ذلك الوقت - نموذجًا لقدراته في التخطيط والتنظيم وقيادة التنفيذ. وتمكن الضباط الأحرار من المضي في تنفيذ الخطة بمفاجأة كاملة وبإتقان كبير، بل إن الملك - الذي أذهلته المفاجأة وسرعة التأييد الشعبي للثورة - لم يجد سبيلاً للمقاومة، ولم يسمع في قصر رأس التين - حيث كان محاصراً - سوى طلقات رصاص متناثرة بغير أثر أطلقها بعض من حرسه الخاص. وكلف رجال الثورة على ماهر بتشكيل الوزارة.

تحمس على ماهر للثورة بعد أن كان مستقبله السياسي مع الملك قد انتهى، واعتبر هذا التكليف بمثابة عودة الروح السياسية له، فضلاً عن كونه رد اعتبار؛ فلقد كان الملك قد سبق له تكليفه بتشكيل الوزارة عقب سقوط حكومة الوفد بعد أحداث حريق القاهرة، ولكن سرعان ما خرج منها بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين

القصر، وهو ما كان على ماهر يعزوه إلى الوقيعة بين الملك وبينه بفعل حافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى حينذاك على حد قول على ماهر لى.

وفى هذا الإطار النفسى لرؤية على ماهر لتكليف رجال الثورة له بتشكيل الوزارة الأولى، طرح على ماهر على الضباط الأحرار مبكراً السؤال، إن كانوا سيعودون إلى ثكناتهم، فكان الرد - على نحو ما رواه لى - بالإيجاب!

وشعر على ماهر أن الجو قد خلا له بخروج الملك من مصر، وأن السلطة التى انتزعها العسكريون تؤول إليه وستتدعم بين يديه إلا أن هذا الإحساس لم يدم طويلًا. وبدأ على ماهر يدرك مع الوقت أنه لا يملك يداً مطلقة فى تصريف أمور البلاد.

وجاءت أول الشواهد مبكرة وآماله لم تزل فى مهدها. فلقد دعا على ماهر رجال الثورة إلى حفل شاى أقامه تكريمًا لهم فى مساء (٢٦ يوليو ١٩٥٢) يوم مغادرة الملك البلاد. ولكنه فوجئ بهم يعتذرون، وتوجهوا إلى القاهرة مباشرة.

ولم أستطع وقتها أن أحدد دلالات هذا الحدث الذى رواه لى على ماهر وقد كنت أتردد عليه كطبيب - قبل الثورة وبعدها - بحكم مرضه بقصور فى الشريان التاجى للقلب.

فهل كان موقف رجال الثورة يومها بحكم مشاغلهم الطاغية بعد ٧٢ ساعة فقط من قيامهم بالثورة؟ أم كان درسًا مبكراً أرادوا به تحديد الموقف، وأنه إن كان ثمة تكريم فهم مصدره لا موضعه؟!

ومضى الوقت وتزايد تباين التفكير والمواقف وضوحًا بين رجال الثورة وسياسيين من العهد السابق؛ وسبب ذلك هو أن هؤلاء الشباب المتحمس كانوا يواجهون أخطر القضايا، وثورتهم لم تزل وليدة، وكانوا يرون الوقت عنصراً ضاغطًا يفرض مناقشة الموضوعات واتخاذ القرارات الفورية بشأنها، وإن الالتفات إلى قواعد البروتوكول كان ثانويا فى ذهن ضباط ثوار لم يمارسوا الحكم وطقوسه، وإنما تمرسوا فى القيادة الميدانية لقواتهم.

لم يكن على ماهر مرتاحًا لهذا الوضع، وكان يشكو لى من أن رجال الثورة

يتعمدون إخراجه أحيانًا من اجتماعات مجلس الوزراء ليجتمعوا به لفترات طويلة، وكان يرى فى ذلك انتقاصًا مقصودًا لمكانته.

كما كان على ماهر حساسًا من مقابلة رجال الثورة للوزراء فى مكاتبهم يسمعون منهم ويناقشون معهم. وكان يعتبر ذلك تقييدًا لسلطاته وتعديًا على اختصاصاته. ولم يستطع أن يستوعب محاولة رجال الثورة نقل أفكارهم الشابة وطموحاتهم الكبيرة إلى الوزراء المتخصصين، وما كان على استعداد لأن يتصور أن بعض رجال الثورة كانوا مكلفين بمتابعة أعمال وزارات بعينها بحكم المسئوليات الملقاة على أكتافهم يوم عقد لثورتهم النجاح فى صباح ٢٣ يوليو.

ولكن وزراء آخرين كانوا يتفهمون دوافع الشباب ومقتضيات هذه المرحلة وأذكر أن سمعت من محمد على رشدى - وزير العدل فى وزارة على ماهر - ثناءً مطولاً على أحد ضباط الثورة، جاء إلى مكتبه لمناقشة بعض المسائل التى تدخل فى اختصاص وزارته، وكان هذا الضابط - كما روى لى وزير العدل - محدثًا ممتازًا استطاع أن يقنعنى بأمور عديدة، ورجانى أن أنفذ ما أستطيع مما أكون قد اقتنعت به. وكان الضابط هو جمال عبد الناصر الذى لم يكن الوزراء فى بداية عهد وزارة على ماهر قد أدركوا بعد، أنه قائد الثورة.

وتوالت الأحداث واستقر الرأى على أن مهمة على ماهر بالنسبة للثورة قد انتهت، ولم يعد هناك مبرر لبقائه فى الحكم، وتقرر خروجه وتأليف وزارة برئاسة محمد نجيب.

وكان من الطبيعى أن يخص على ماهر الرئيس جمال عبد الناصر بكثير من الانتقادات فيما بعد، بحكم كل ما سلف، وبحكم موقع جمال عبد الناصر من الثورة، وأذكر من بين هذه الانتقادات ما كان يتعلق بموقف عبد الناصر من منطقة حلوان.

كان على ماهر - كما بين لى - مقتنعًا بأن حلوان بحكم موقعها وبمياهها المعدنية يجب أن تكون قرية سياحية، فى حين كان جمال عبد الناصر مقتنعًا بأن حلوان هى المستقبل لمجمع صناعى ضخم.

كان تعارض الأفكار جليا، وكان تناقض الانتماءات الاجتماعية واضحًا، كان علي ماهر يرى في حلوان مكانًا هادئًا يفد إليه القادرون أثناء فصل الشتاء طلبًا للاستشفاء والراحة، وكان جمال عبد الناصر يرى فيها موقعًا لصناعات جديدة، وفرص عمل وحياة كريمة لمئات من العائلات المصرية.

وليس في نيتي الترجيح بين وجهتي النظر فليس ذلك قصدي، وإنما أردت أن أوضح قدر الاختلاف في الرؤية، وفي التفكير، وفي نقاط الاقتراب من المشكلات.

ولو كان علي ماهر قد تأنى قليلاً لأدرك الإجابة الحتمية للسؤال الذي وجهه في بداية الثورة إلى رجالها: هل ستعودون إلى ثكناتكم؟!

ثم اشتد المرض على علي ماهر، وركز اهتمامه على حالته الصحية، وخرج من المسرح السياسي إلى أن توفي إلى رحمة الله.

□ الفصل الثانى □

بداية المشوار

قبيل منتصف الستينات اتصل بى الدكتور أحمد ثروت الطبيب المرافق للرئيس جمال عبد الناصر وأبلغنى أن الرئيس طلب منه أن يعرض على الإشراف على علاجه، كان ذلك بعد ثلاثة شهور من وفاة المرحوم الدكتور أنور المفتى الذى كان يشرف على علاج الرئيس.

كان اختيارى لهذه المهمة من جانب جمال عبد الناصر تقديراً كبيراً لى حيث كانت سمعتى أساس هذا الاختيار والفيصل فيه، فلم يكن الرئيس يعرفنى شخصيا، ولم أكن طبيباً فى القوات المسلحة عرفته بحكم موقعى.

وما أتيح لى أن أرى الرئيس جمال عبد الناصر قبل ذلك إلا مرة واحدة، وفى عجالة، فى أوائل أيام الثورة، فقد حدث أن ذهب جمال عبد الناصر لزيارة المرحوم حفنى محمود أثناء مرضه وبصحبته عبد الحكيم عامر، وكان حفنى محمود من رجال السياسة البارزين ومن أعز أصدقاء (حيدر باشا) وتصادف وجودى هناك أثناء الزيارة فسلمت على الزائرين لدى وصولهما وانصرفت. وأذكر أن المرحوم حفنى محمود كان ممتنًا لسؤال عبد الناصر عنه. وقال لى بعدها «تصور أن يحضر جمال عبد الناصر لزيارتى حين علم بوعكتى بمجرد رجوعه من برج العرب بينما لم يكلف محمد نجيب نفسه عناء الحضور وهو الذى كان فى القاهرة» !

وكان أول لقاء لى بالرئيس جمال عبد الناصر للإشراف على علاجه بعد أن انتقى الدكتور حسن صبرى رئيس القسم الطبى بالقوات المسلحة مجموعة من الأطباء الأجانب فى مختلف التخصصات لإجراء الكشف على الرئيس.

لم يكن هناك سبباً محدداً لهذا الكشف وإنما كان فحصاً روتينيا شاملاً، وكان علىَّ أن أكشف على الرئيس وأن أكتب نتيجة الكشف فى تقرير.

ودخلت منزل الرئيس جمال عبد الناصر لأول مرة. كان منزلاً بسيطًا، بل متواضعًا بالقياس لمنازل الرؤساء، عبرت الحديقة الأمامية ودلفت من الباب الرئيسى فى الدور الأرضى إلى صالة كبيرة تتوسطها منضدة مستديرة من الرخام عليها آنية من الزهور هى أول ما يراه الداخل إلى الدار. على اليسار كان هناك باب يقود إلى حجرة مكتب الرئيس فى الدور الأرضى، وعلى اليمين كان باب آخر يقود إلى الحجرة التى كان الرئيس يستقبل فيها ضيوفه، تتوسطها مدفأة تعلوها لوحة طفل يقدم راكعًا باقة من الزهور إلى طفلة وتحت هذه الصورة كانت معظم صور الرئيس مع ضيوفه الرسميين، وبعد هذا الباب، وعلى الجانب الأيمن أيضًا، كان باب آخر يقود إلى الصالون الرئيسى ثم حجرة الطعام الرئيسية وهى حجرات كانت تستخدم فى المناسبات حين يستقبل الرئيس وفودًا كثيرة العدد، أو يقيم فى منزله دعوات رسمية.

وقطعت الصالة الرئيسية إلى السلم الذى يقود إلى الدور العلوى، حيث كانت صالة المعيشة للرئيس والأسرة فى مقابل السلم، وعلى يمينه فى مساحة مفتوحة كانت غرفة طعام الأسرة.

ودخلت إلى جناح الرئيس: حجرة مكتب علوية تقود إلى حجرة نومه كان على المكتب أوراقًا كثيرة مرصوصة بنظام دقيق يعبر عن شخصية شاغله، وخلف المكتب مكتبة ملأى بالكتب والمراجع التى يستخدمها الرئيس، وأمامه وعلى الناحية المقابلة للغرفة كانت كنبة أمامها منضدة عليها مجموعة من الصحف، وبجانبها كرسى، وبينهما منضدة صغيرة عليها جهاز الراديو.

وخلف الكرسى الجانبى مكتبة أخرى أصغر حجمًا تحوى أوراقًا على بعض رفوفها، وكتبًا على البعض الآخر، يفرق بينهما براويز بصور عائلية لأفراد أسرة الرئيس.

وعبرت حجرة المكتب العلوية إلى حجرة نوم الرئيس، كان سريره على يسار الباب وبجانبه منضدة تعلوها مجموعة كبيرة من الأوراق المنظمة بدقة أيضًا. وعلى يسار السرير كان جهاز التليفون وجهاز راديو صغير. وفى الجانب المواجه لباب الدخول كان الحائط عبارة عن مجموعة من البلاكارات (الدواليب الخشبية) وفى

وسطها مرآة تحتها «شيفونيرة». وكان فى الحجرة كرسى هزاز أمامه منضدة صغيرة فوقها مجموعة من الأوراق كسابقاتها. وخلفه موبيليا خشبية تضم بداخلها أجهزة (التليفزيون - الراديو - المسجل وجهاز تشغيل الاسطوانات). وبداخلها كانت مجموعة كبيرة من إسطوانات الموسيقى الكلاسيكية وشرائط مسجلة لحفلات أم كلثوم، وفى الحجرة كان الرئيس جمال عبد الناصر فى انتظارى.

كان انطباعى عن جمال عبد الناصر قبل أن ألتقى به أنه زعيم ذو شخصية قوية وأن السمة الغالبة عليه هى الشدة والجدية طوال الوقت وأعتقد أننى فى هذا الانطباع العام كنت أشارك غيرى من المواطنين الذين يتابعون الرئيس منذ ١٩٥٢ بواسطة الصحف والإذاعة والتليفزيون.

وتغير هذا الانطباع منذ اللحظة الأولى.

ووقف الرئيس مرحبًا بى فى بساطة شديدة، وعلت شفتيه وعينيه ابتسامة مرحبة أزالت منى على الفور توتر اللقاء الأول.

وبعد حوار قصير سأل فيه الرئيس عنى وعن أسرتى دعانى إلى إجراء الكشف عليه، وبعد انتهاء الكشف لم يفته أن يطلب منى بنفسه أن أتولى الإشراف على علاجه، برغم أنه سبق لى أن أبلغت الدكتور ثروت بأن ذلك يسعدنى وشعرت من أول لقاء بمدى دماثة الخلق ورقة المشاعر التى تميز جمال عبد الناصر، فلم يكن ليترك مثل هذا الطلب يأتينى من طبيبه المرافق وقصد أن يشعرنى بأنه يسألنى ذلك بنفسه.

ولم يكن هذا البعد الإنسانى هو كل ما جد على انطباعى المسبق عن شخصية جمال عبد الناصر. فلقد شعرت من أول لقاء بما تأكد لى مع مرور الوقت من أن جمال عبد الناصر أقوى شخصية مما كنت أتصور؛ فهو أقوى حتى من كل الانطباعات التى تتركها خطبه وصوره، ويتمتع بشخصية آسرة عميقة التأثير فيمن تتاح له فرصة مقابلته.

وخرجت من عند جمال عبد الناصر لأكتب تقريرى بنتائج الكشف.

ومن ذلك الوقت توليت مهمة الإشراف على علاج الرئيس عبد الناصر. كنت أزوره بصفة دورية كل أسبوع مرة وإذا دعت الحاجة كانت زياراتى له تتكرر يوميًا.

وكانت من عادة الرئيس أن يصحو مبكرًا ويطلب كوبًا من الشاى فى حجرته، ويبدأ يومه بالاطلاع على جميع طبعات الصحف المصرية والاستماع إلى نشرات الأخبار الصباحية فى الإذاعات العالمية، ثم يبدأ فى إجراء عدد من الاتصالات التليفونية الصباحية بالمسئولين فى الدولة.

وبعد حوالى الساعتين - أى فى حوالى التاسعة صباحًا - كان الرئيس يطلب الطبيب المرافق الذى ينفذ العلاج، وفى هذا الوقت كنت أدخل إليه حين أحضر فى زياراتى الدورية.

وخلال السنوات التى عرفت فيها جمال عبد الناصر من قرب وجدته إنسانًا متواضعًا حلو الاستقبال، وكان دائمًا سريع البديهة، قوى الملاحظة، مرح الروح مهما كانت التحديات التى تشغل باله، كان يتحدث معى قبل الكشف عليه حديثًا عامًا، فإما أن يحكى عن بعض مشاغله فكنت أستمع لما يشاء روايته، أو أن يسأل عن بعض الأمور التى تهمه.

خلال السنوات الطوال نشأت بين الرئيس جمال عبد الناصر وبينى تلك العلاقة الحميمة التى تميز دائمًا علاقة الإنسان بطبيبه، فالطبيب يرتبط دائمًا بالصحة، وهو الذى يعود الشخص إذا مرض، هو الذى - من بعد الله - يشفى ويطيب.

فريق كامل من الأطباء

كان الرئيس جمال عبد الناصر يعانى من مرض السكر منذ عام ١٩٥٨ ولم يظهر عليه أية مضاعفات لهذا المرض منذ ذلك التاريخ وحتى ١٩٦٨ وانحصرت المضاعفات حينذاك فى آلام الساق التى بدأ يشعر بها على النحو الذى سيرد فى حينه. وكان مرض السكر وراثيًا فى عائلته فقد كان له أخ مريض بالسكر وكذا كان عمه.

وكان الرئيس يتبع نظامًا خاصًا فى الأكل لعلاج السكر، ولم أجد متاعبًا فى هذا المجال؛ فقد كان عبد الناصر بطبيعته غير ميال للإكثار من الأكل وكان طعام الرئيس وعائلته عامة أكلاً مصريًا عاديًا وصحيًا.

ففى الإفطار كان طعام الرئيس يتكون عادة من الخبز والفول المدمس والجبن الأبيض، وفى العشاء كان بعض أنواع الفاكهة الطازجة يحل محل الفول، أما طعام الغذاء فكان يتكون من الخضروات والسلطة الخضراء واللحوم والخبز، وكانت كمية النشويات فى الوجبات الثلاث محدودة.

ولم يخل الأمر من الاستثناءات فأحيانًا كان الرئيس عبد الناصر يبلغنى بأنه قد أكل كمية أكثر من الخبز. كذلك كان يخرج على نظام أكله حين تطهو زوجته أحد الأصناف «مثل المحشى» وهى التى عرفت بإجادة الطهى بامتياز.

وكان علاج السكر عند الرئيس جمال عبد الناصر يعتمد على حقن الأنسولين، حيث كانت العقاقير التى تعطى عن طريق الفم غير مجدية فى علاجه، فكان عليه أن يأخذ حقنة أنسولين طويلة المفعول يوميًا قبل الإفطار.

وبعد فترة من إشرافى على علاج الرئيس، رأيت إشراك الأستاذ الدكتور على البدرى، أخصائى مرض السكر المعروف معى فى العلاج، وكان الأستاذ الدكتور ناصح أمين يعمل التحاليل اللازمة.

كان الدكتور أحمد ثروت طبيبًا مرافقًا للرئيس جمال عبد الناصر يتولى تنفيذ العلاج، وحين مرض فى أعقاب ١٩٦٧ ولم يتمكن من مباشرة عمله حل محله الدكتور الصاوى محمود حبيب. إلا أن الرئيس كان حريصًا على أن يزوره الدكتور أحمد ثروت دوريًا حفاظًا على مشاعره، وبقيت زيارات الدكتور ثروت مستمرة حتى انتقل الرئيس إلى رحمة الله.

كان يشترك معنا فى علاج الرئيس عبد الناصر الدكتور «بولسون» من «الدانمرك» وهو من أكبر أخصائى السكر فى العالم، وكان يعود الرئيس مرة كل ستة أشهر أو إذا دعت الحاجة، وكان الدكتور «بولسون» من أشد المعجبين بشخصية الرئيس جمال عبد الناصر وكان دائم الإشادة به كزعيم عالمى، وكان يأتى متطوعًا رافضًا أية أتعاب.

ومن آن لآخر كان يزور الرئيس أيضًا الدكتور «فيفر» من «ألمانيا الغربية» وهو أخصائى شهير فى مرض السكر.

وكان الرئيس يشكو من حساسية بالجيوب الأنفية ، وكان يعالجه من ذلك الأستاذ الدكتور على المفتى الذى ظل يشرف على علاجه حتى رحيله عام ١٩٧٠ كما كان يشكو من تمدد فى الشعب الهوائية بالرئة اليمنى مما كان يسبب له متاعب كثيرة ؛ حيث إن أى التهاب بالجيوب الأنفية يمكن أن ينتقل بسرعة إلى الشعب والرئة مسببًا له نزلات شعبية ، وأحيانًا التهابًا بالرئة ، خاصة وأنه معروف أن مرض السكر يقلل من مقاومة هذه النزلات .

كان هؤلاء يشكلون مجموعة الأطباء المعالجة لجمال عبد الناصر ، والذين عملوا معى كفريق للمحافظة على كامل اللياقة الذهنية والبدنية للرئيس حتى وافاه القدر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

وعلاوة على هؤلاء الأطباء فقد كنت أستشير بعض الأخصائيين من الداخل أو الخارج كلما استلزم الأمر ذلك .

وبعد رحيل الرئيس جمال عبد الناصر انتشرت شائعات مغرضة ومقصودة حول أطباء الرئيس ، بعضها كان مجرد افتراء استغل أن أطراف الشائعات أصبحوا فى ذمة الله ؛ محاولة النيل من جمال عبد الناصر ، وكان بعضها الآخر من نسيج الخيال كأفلام الجاسوسية فى السينما العالمية .

كانت أول هذه الشائعات هى : أن المرحوم الدكتور أنور المفتى قد مات مسمومًا عقب تناول كوب من عصير الجوافة فى منزل جمال عبد الناصر ، وإن ذلك كان بتدبير صلاح نصر مدير المخابرات العامة فى ذلك الوقت ، وقد ترددت هذه الشائعات مع بدايات حملات ضارية وظالمة ضد عهد جمال عبد الناصر كله استمرت لسنوات طويلة واستهدفت الرجل بقدر ما استهدفت مبادئه .

وكان من أكثر من آلمهم هذا الافتراء الدكتور على المفتى - شقيق الدكتور أنور المفتى - طبيب الأنف والأذن والحنجرة الذى كان يتولى علاج الرئيس عبد الناصر .

وتذكرت كم من أكواب العصير وفناجين القهوة والشاى شربت فى بيت جمال عبد الناصر وفى مكتب صلاح نصر بالمخابرات العامة .

وادعت ثانى هذه الإشاعات أن إسرائيل نجحت فى إقحام جاسوس لها بين فريق

أطباء الرئيس، وأنه كان طبيب العلاج الطبيعى الذى نجح فى أن يتسبب فى وفاة الرئيس عام ١٩٧٠ من خلال تدليكه بمادة سامة بطيئة المفعول. والواقع أن هذا الاسم الذى تردد لم يكن أبدًا من بين المترددين لأى شأن من الشئون على منزل الرئيس - على فرض أن لهذا الاسم وجودًا - كما أن الرئيس لم يخضع للعلاج الطبيعى إلا لفترة محددة بدأت بعد عودته من «سخالطوبو» فى نهايات ١٩٦٨ وانتهت لدى إصابته بالأزمة القلبية الأولى عام ١٩٦٩ حين أوقفت هذا العلاج لتعارضه مع علاج المصاب بالقلب وكان طبيب العلاج الطبيعى هو الدكتور فوده الضابط بالقوات المسلحة ومسئول العلاج الطبيعى بمعهد التأهيل بالعجوزة.

وكان جمال عبد الناصر مريضًا مطيعًا يؤمن بأهمية الالتزام بإرشادات الطبيب قدر ما يستطيع، ومن الطريف أنه كان لا يحب أن يرى منظر الدم وكان يدير وجهه عند أخد عينة دم منه.

وكان يدخن بكثرة سجاير «كرافن» بدون فلتر، ثم سجاير «كنت» وقد حاولنا مرارًا منعه من التدخين دون جدوى، وكان يقول: «لقد أصبحت السجاير هوايتى الوحيدة المتبقية فهل ستحرمونى منها أيضًا؟!».

ولكن فى ١٩٦٨ حين بدأ يشعر بآلام الساق نتيجة قصور فى الدورة الدموية طلبنا منه ضرورة التوقف عن التدخين، كما طلب منه الأطباء الروس ذلك، وامتدت يد جمال عبد الناصر بالسيجارة المشتعلة فى يده إلى المنضدة بجانبه وأطفأ سيجارته، ولم يعد إلى التدخين أبدًا بعدها.

وكان عبد الناصر يعمل قرابة الثمانية عشر ساعة يوميًا، كان يصحو مبكرًا وينام متأخرًا، وكان طوال يومه حبيس مكتبه ما بين الأوراق والتليفون وجهاز الراديو. وكان بحكم موقعه ومسئولياته يعيش كل سطر يقرؤه وكل خبر يسمعه، كان عمله هو حياته بكل ما فى الكلمات من معان.

كانت المشكلات التى يتعامل معها جسيمة بقدر طموحاته، وبقدر دوره الرائد فى عالمنا العربى وفى العالم الثالث، وحين كنت أنصحه بالبعد عن الانفعالات والحد من الجهد الذى يبذله كان رده يجيئنى: «هذه طبيعتى لا أستطيع لها تغييرًا، وهذا قدرى لا مناص من مواجهته».

حرب يونيو ١٩٦٧

حفلت الفترة ما بين أول لقاء لى بالرئيس جمال عبد الناصر حين توليت مسئولية الإشراف على علاجه وبين حرب يونيو ١٩٦٧ بكثير من الأحداث عاشتها مصر داخليًا وخارجيًا.

ففى الداخل شهدت مصر تطوراً ملحوظًا فى قدرتها الاقتصادية والإنتاجية وخاصة فى مجال الإنتاج الصناعى، فقد أقيمت عشرات المصانع؛ مما ساعد على سد الاحتياجات الأساسية للأغلبية الساحقة من الشعب، والتقليل من اعتمادنا على الاستيراد كما شهد الإنتاج الزراعى طفرة كبيرة، وحققت مشروعات استصلاح الأراضى وزيادة الرقعة الزراعية أرقامًا قياسية.

وفى نفس الوقت،كانت سياسة مصر الخارجية لا تقل نشاطًا وحيوية فكان دور مصر الرائد فى تدعيم سياسة الحياد الإيجابى، وتوسيع دائرة دول مجموعة عدم الانحياز، وهى السياسة التى كانت مصر أحد الأركان التى أنشأتها مع كل من الهند ويوغوسلافيا فى محاولة لإيجاد طريق ثالث للدول النامية تحافظ به على استقلالها دون أن تضطر إلى الدوران فى فلك أى من القوى الكبرى.

وكانت علاقات مصر بالولايات المتحدة الأمريكية متوترة بصفة عامة منذ رفضت أمريكا تمويل السد العالى، ثم بسبب مواقفها من التجربة الثورية فى مصر عامة سواء فى مجال التنمية أو فى مجال سياسة مصر الخارجية فى المنطقة العربية، ابتداءً بموقف مصر المعارض لمشروع «أيزنهاور»، والذى كانت مصر ترى فيه تكراراً متطوراً لمشروع حلف بغداد، وهو المشروع الذى سبق أن رفضته مصر.

وكان «أيزنهاور» قد تقدم فى عام ١٩٥٧ بمشروع يقضى بعقد تحالف عسكرى

مع دول الشــرق الأوسط لملء الفــراغ الذى نتج عن جــلاء القــوات الإنجليــزية والفرنسية، وهو فى حقيقة الأمر خطة لبسط النفوذ الأمريكى فى المنطقة.

كما أن موقف الولايات المتحدة من قضية فلسطين وممالأتها لإسرائيل كان من العوامل الرئيسية فى ترسيخ هذا التباعد، وحين سنحت أول فرصة للحوار على مستوى القمة حول هذه القضية ما بين الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس «جون كيندى» سرعان ما ولت باغتيال الأخير فى مدينة «دالاس» الأمريكية.

وحين تولى «ليندون جونسون» رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية توقف الحوار الذى بدأه «كيندى» مع عبد الناصر وأصيبت العلاقات المصرية ـ الأمريكية بمزيد من التدهور؛ فلقد ازدادت السياسة الأمريكية المنحازة لإسرائيل والمعادية للعرب سفوراً.

وكان واضحًا أن التناقض ينبع من الجذور: فأمريكا ضد النمط الاشتراكى فى التنمية الذى اختارته ثورة يوليو فى هذه المرحلة، وضد أهداف التنمية التى تسعى إلى بناء القدرات الاقتصادية الذاتية لمصر وتطويرها من مجتمع زراعى إلى مجتمع صناعى ـ زراعى. وأذكر أن قال لى عبد الناصر:

«إن أمــريكا تعــارض فى أن تكون مـصــر بلداً صناعــيًــا، وإنهـم أعـربـوا عن استعدادهم لتمويل أى مشروعات تحت هذا الشرط».

ثم أردف قائلاً:

«إن مطلبهم هذا غير معقول فضلاً على كونه غير مقبول؛ فإن بناء القدرات الذاتية الحقيقية لأية دولة لا تكون إلا بالتصنيع لتنكسر الدائرة المفرغة للتبعية. بالإضافة إلى أن مشكلتنا فى معدل التزايد السكانى تفرض علينا هذا الاتجاه فرضًا حتى لا نواجه يومًا بمعدل زيادة فى عدد السكان يزيد على معدل التنمية؛ لذلك فإنه حتى بعد أن ننتهى من بناء السد العالى لا يمكن أن نعتمد على الزراعة فقط، فالزيادة فى الرقعة الزراعية لن تكون كافية على المدى البعيد، ويجب أن نستخدم الطاقة التى يولدها السد فى التصنيع.

وأمريكا كانت أيضًا ضد المساعدات المصرية لقضايا التحرر فى العالم الثالث،

ومناوئة للدعم المصرى لتحرير الدول العربية من الاستعمار البريطانى والفرنسى، ومن السيطرة الأجنبية عامة والتى كانت هى السيطرة الأمريكية فى ذلك الوقت.

وبلغ التناقض مداه حين تقدمت حكومة «جونسون» بشروطها لاستمرار توريد القمح لمصر، وفى مقدمتها توقف نشاط مصر الثورى فى العالم العربى، بالإضافة إلى شروط أخرى تعتبر تدخلاً فى شئوننا الداخلية، وهى الشروط التى رفضها جمال عبد الناصر، وأعلن أن مصر لن تقايض حرية إرادتها كما أنها لن ترهن دورها العربى، وأنها ستدبر العملة الحرة اللازمة لشراء القمح من الأسواق العالمية أيًا كانت الأعباء الإضافية التى يعينها ذلك على خطة التنمية الاقتصادية.

وكانت العلاقات المصرية ـ الأوربية لم تزل متأثرة فى تلك الفترة بتجربة العدوان الثلاثى الذى شاركت فيه بريطانيا وفرنسا مع إسرائيل ضد مصر، ثم المعونة الفرنسية لإسرائيل فى النشاط الذرى، والتعويضات الألمانية المتدفقة على إسرائيل، وهدايا وصفقات الطائرات والدبابات الألمانية لإسرائيل.

أما العلاقات المصرية ـ السوفيتية فكانت تشهد تطوراً مستمراً بعد موقف الاتحاد السوفيتى من المعاونة فى بناء السد العالى ومساعداته لمصر فى تمويل احتياجات خطة التنمية بشروط ميسرة.

ولم يكن بعيداً عن إدراك جمال عبد الناصر أن لكل من الدولتين الكبيرتين فى العالم أهدافها الخاصة. ولكن القضية ببساطة كانت أمامه كالتالى: دولة كبرى ـ الولايات المتحدة ـ تعادى أهداف نظامه من عند الجذور والمنبع، ودولة كبرى أخرى ـ الاتحاد السوفيتى ـ من مصلحتها معاونة مصر على بناء قدرتها الذاتية فى التنمية ودعمها فى المحافل الدولية، ولأن دور مصر التحررى يهز مركز القوة الأمريكية التى هى المنافس الأول للاتحاد السوفييتى؛ فقد كان هناك إذن تقارب فى الأهداف ـ ولو مرحليًا ـ بين مصر والاتحاد السوفييتى، وكان الاختيار منطقيًا أمام دولة نامية تسعى إلى بناء ذاتها.

ولكن عبد الناصر كان واعيًا ـ على عكس كل الدعايات المغرضة ـ لأن هناك حدوداً لعلاقاته مع الاتحاد السوفييتى، فاستقلال الإرادة المصرية كان بالنسبة له قضية لا مجال فيها لأنصاف الحلول، ومن هنا شهدت هذه الفترة أيضًا صعوداً

وهبوطًا فى العلاقات المصرية ـ السوفيتية، ولعل تلك المساجلة العلنية التى حدثت فى حفل انطلاق الشرارة الأولى فى مشروع السد العالى لأكبر دليل على رفض جمال عبد الناصر السماح بالتدخل فى شئوننا الداخلية من أى دولة كبرى.

ففى تلك الأيام كانت مصر تحتفل احتفالاً ضخمًا ببدء بناء السد العالى، وهو مشروعها العظيم الذى يجسد معركتها الكبرى فى الخمسينيات من أجل حرية إرادتها السياسية، وكان ضيوف الشرف فى الاحتفال رؤساء دول عربية فى مقدمتهم الرئيس عبد السلام عارف من العراق، وكان «نيكيتا خروشوف» على رأس ضيوف مصر تقديراً للدور الذى لعبه الاتحاد السوفييتى فى حرب ١٩٥٦ ومن بعدها فى تقديم المعاونة فى بناء السد العالى. وبدأ الضيوف بإلقاء كلماتهم فى الاحتفال بموقع السد فى أسوان، وكان جمال عبد الناصر آخر المتحدثين باعتباره رئيس الدولة المضيفة.

وكان للرئيس «خروشوف» مواقفه الدولية التى كثيراً ما تتسم بالتلقائية، وفى كلمته عمد إلى الحديث عن الشيوعية كمذهب وكنظام سياسى، وأنها النظام الكفيل بتحقيق أمانى العمال.

ووقف جمال عبد الناصر ليلقى خطابه، فنحى جانبًا الكلمة التى أعدها وبدأ حديثه، وسرعان ما وصل إلى التعليق على كلام خروشوف ـ ضيف الشرف الأول والسكرتير العام للحزب فى إحدى القوتين العظميين ـ أكد عبد الناصر على أن حرية الإرادة المصرية مطلب غال كلف شعبنا نضالاً طويلًا عبر تاريخه، ولم يتحقق إلا بالثورة فى ١٩٥٢، وأن شعب مصر الذى خاض حربًا ضروسًا فى عام ١٩٥٦ دفاعًا عن إرادته الحرة على غير استعداد لأن يفرط فى ذرة واحدة من حريته فى اختيار نظامه السياسى الذى ينبع من تاريخه ومعتقداته، وركز على أن شعب مصر الذى يحترم علاقات الصداقة بالشعوب الأخرى، يرفض أية محاولة لأن تتعدى هذه الصداقة حدودها.

تعمد عبد الناصر أن يرد على «نيكيتا خروشوف» فوريًا وعلنيًا ليحدد بوضوح وحسم أساس علاقات دولة نامية بدولة كبرى.

ولم يكن ما قاله جمال عبد الناصر فى ذلك إلا تعبيراً عن إحساس كل مصرى،

وبالفعل فلقد انتهى بناء السد العالى بعد سنوات من العمل المضنى الذى شارك فيه خبراء «سوفييت» مع العمال المصريين، ولم يتحول عامل مصرى واحد إلى الشيوعية.

كانت الفترة ما بين أول لقاءاتى بالرئيس جمال عبد الناصر وحرب يونيو ١٩٦٧ حافلة إذن بالأحداث الكبار، ولكن اختيارى كان أن أبدأ هذه المذكرات مع حرب ١٩٦٧؛ وكانت لذلك دوافعى وهى متعددة، علاوة على ما أسفرت عنه هذه الحرب من احتلال إسرائيل لأراضى عربية جديدة؛ هى سيناء، وقطاع غزة، والضفة الغربية، ومرتفعات الجولان.

ففى ظنى أن هذه الحرب كانت تمثل قمة التصاعد بالمواجهة بين ثورة ٢٣يوليو بقيادة جمال عبد الناصر وبين قوى دولية عديدة كانت بتناقض المصالح تقف للثورة فى عداء.

كان اختلاف المصالح الأساسية والحيوية ظاهراً للعيان بوضوح منذ السنوات الأولى للثورة بعد أن تحددت باليقين اتجاهاتها التحررية خارجيًا، وانحيازاتها المطلقة لصالح الطبقة الكادحة وهى الأغلبية الساحقة من المصريين داخليًا.

ولم يتوقف هذا التناقض عن التعبير عن نفسه طوال الوقت: بالعسكرية أحيانًا ـ مثلما حدث فى ١٩٥٦ وحرب التحرير الجزائرية ـ وبالصراع السياسى والاقتصادى طوال الوقت.

ولم يكن الصراع من حول المصالح ظاهرة اختصت ثورة ٢٣ يوليو؛ فعلاقات الدول كعلاقات الأفراد، ما هى إلا صراع مستمر لتحقيق المصالح.

ولكن ما ميز ثورة ٢٣يوليو كان ـ أولاً ـ أنها ثورة فى مصر التى تحتل موقعًا استراتيجيًا فريداً وخطيراً فى العالم حيث تقع فى منطقة القلب منه ـ أى الشرق الأوسط ـ سواء بكل ما يمثله هذا الموقع من أهمية استراتيجية عسكرية للقوى الكبرى التى تمتد مصالحها على خريطة العالم أجمع، ويرتبط ثقلها وسيطرتها على العالم بمدى سيطرتها على منطقة القلب منه، أو سواء بما تخبئه هذه المنطقة فى باطنها من ثروة بترولية هائلة.

وكان مما يميز ثورة يوليو ـ ثانيًا ـ أن مصر بالذات تمثل منطقة الاتصال بين المشرق والمغرب العربى، فإما أن تكون عنصر عزل لطرفى العالم العربى، أو أن تكون عنصر وصل وتواصل بين جناحى أمة واحدة، وهو بالمنطق التاريخى والجغرافى معًا وظيفتها الطبيعية.

وكان مما يميز ثورة يوليو ـ ثالثًا ـ أن مصر وعيت أهمية موقعها فى الصراع العالمى، وفى منطقة الشرق الأوسط بالذات، وأدركت أنها طرف أصيل فيما يدور حولها من صراع، حدوده بحدود خريطة العالم كله، شاءت ذلك أم أبت. وإزاء هذا الوعى كان أمامها أن تختار:

إما أن تكون طرفًا بالخضوع لمصالح القوى الكبرى التى تُسَيِّر العالم، وأن تبقى فى النظام الدولى فلكًا يدور بغير إرادة، أو أن تصبح طرفًا بالمشاركة الإيجابية تحقيقًا لمصالح شعبها المصرى والشعوب العربية فى الاستقلال الحقيقى سياسيًا واقتصاديًا.

وكان هذا ما اختارته الثورة منذ بدايتها، ونتيجة لذلك التفت الأغلبية الساحقة من الملايين العربية تؤيد وتؤازر جمال عبد الناصر فى سياساته التى اتبعها تنفيذًا لهذا الاختيار المبكر.

وكانت حرب ١٩٦٧ هى النتيجة الحتمية لتناقض المصالح بين ثورة ٢٣ يوليو والقوى المعادية لها، بعد اختيارها الرافض للتبعية إن شرقًا أو غربًا.

أما بالنسبة لإسرائيل فقد أجمع قادة الدولة الإسرائيلية وفى مقدمتهم مؤسسها «دافيد بن جوريون» على أن الوجود الإسرائيلى لن تقبله الدول العربية طواعية، وإنما يجب أن يفرض قسرًا، وأن إسرائيل إذا تمكنت من الحصول على السيادة فى الصراع العربى- الإسرائيلى فإنها ستتصرف من منطلق الشعور بالأمن والاستقرار، وتتمكن من تحقيق وجودها وأهدافها التوسعية فى المنطقة.

وكان أول أساليب تأمين سيادة الوجود الإسرائيلى هو أن تصل إسرائيل إلى ما يسمونه «بالحدود الآمنة» وهو تعبير فضفاض حيث لا يوجد أى تحديد إسرائيلى واضح لما ترى فيه حدودًا آمنة لها مع بقية الدول المحيطة بها، ولا يعنى هذا التعبير سوى الرغبة فى التوسع.

وثانى أساليب تأمين هذا الوجود هو ضمان عدم نمو قوة عربية فيما وراء تلك الحدود الآمنة يمكن أن تعرقل أو تتحدى الهدف القومى لإسرائيل، وبهذا المفهوم فإن الدول العربية المحيطة بإسرائيل هى «مجال حيوى» لها لا يجب أن تظهر فيه بوادر قوة تهدد سيادتها فى الصراع مع العرب.

فالخطوط المصرية - الإسرائيلية لم تشهد اعتداءات إسرائيلية لفترة بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو، وكان ذلك حين كان النظام الجديد فى مصر يبدو وكأنه حركة جيش إصلاحية، وإن جلاء الاستعمار البريطانى منتهى أملها وليس بداية عملها الثورى، ولكن حين بدأت مصر تعلن رفضها للأحلاف الغربية وقع أول عدوان إسرائيلى على غزة فى فبراير ١٩٥٥، وراح ضحيته تسعة وثلاثين من المصريين؛ لتشعر مصر بقوة إسرائيل وتقبل الانضمام إلى الأحلاف لتحتمى فيها.

ثم بدأ وجه مصر الثورى يزيد إيضاحًا مع الوقت، ليتأكد مدى التناقض بين استمرار الثورة المصرية وبين الأهداف النهائية لإسرائيل، كما عبر عنها زعماؤها، فلقد كانت مصر هى أول من كشف التقاء المصالح بين إسرائيل والاستعمار، فى حين كانت الحكومات العربية قبل ١٩٥٢ تسعى للمندوب السامى أو السفير البريطانى لكى تشكو له اضطهاد اليهود للعرب فى فلسطين أو خرقهم للهدنة بين العرب وإسرائيل.

وكانت مصر أول من نادى بعدم الانحياز سياسة تبعد العالم الثالث عن التبعية للقوى التى كانت تقف من وراء إسرائيل، كما كانت مصر أول من سعى إلى تنفيذ خطة شاملة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية تبنى بها قوتها الذاتية وتعطى بها النموذج لمن حولها للسير على طريق النهضة العربية الشاملة.

وبدأت مصر بعد ١٩٥٢ تفكر عربيًا، وتعمل عربيًا، فربطت نضال الشعوب العربية فى مشرق الوطن العربى ومغربه، ووسعت العمق الاستراتيجى المواجه لإسرائيل.

وفى هذا الإطار العام كان دعم الثورة الجزائرية.. وتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسى، وكان دعم ثورة العراق.. وتحريره من النفوذ البريطانى، وكانت الوحدة مع سوريا حتى لا تسقط تحت سيطرة الضباط الشيوعيين، ثم دعم ثورة عبد السلام

عارف الحكومية ضد حكم عبد الكريم قاسم المتحالف مع الشيوعية، وفى هذا الإطار أيضًا كان دعم الثورة اليمنية التى لم يقف أثرها عند حد نقل اليمن من القرون الوسطى إلى القرن العشرين، وإنما كان لدعم هذه الثورة أهدافًا استراتيجية قومية كبرى: بتحويل هذا البلد العربى إلى المشاركة الفعالة فى المواجهة العربية الإسرائيلية بمنع البحرية الإسرائيلية من الملاحة فى البحر الأحمر جنوبًا فى اتجاه باب المندب.

وحين أعلنت إسرائيل عن خطتها لتحويل مجرى نهر الأردن لكى تزرع صحراء النقب لتستوعب ملايين من المهاجرين الجدد الذين يمثلون طاقة بشرية تدعمها فى صراع الوجود مع الدول العربية؛ دعا الرئيس جمال عبد الناصر إلى أول مؤتمر للقمة العربية فى عام ١٩٦٤ وناشد الدول العربية أن تتناسى خلافاتها إزاء الخطر المحدق بها وحين طالب ملوك ورؤساء العرب باتخاذ المشروعات المضادة لخطة إسرائيل لتحويل المياه، أوضح لهم أن ذلك يمكن أن يقود إلى الحرب، ولابد للدول العربية - وخاصة دول المواجهة - أن تسعى إلى دعم قدراتها العسكرية لتكون فى موقف يجنبها الهزيمة، ويمكنها من الدفاع عن نفسها ومن ردع إسرائيل عن التوسع فى أراضٍ عربية جديدة.

وبالفعل أنشئت القيادة العربية المشتركة لدراسة الاحتياجات الدفاعية للدول العربية ووضع خطط التنسيق بين الجبهة المصرية والجبهة الشرقية (سوريا والأردن) فى حالة بدء العمليات العسكرية، ووضعت أسس خطة عسكرية عربية صدقت عليها مصر؛ تقوم على دعم القدرات الدفاعية لدول المواجهة، ثم بناء قدراتها على ردع مشروعات التوسع الإسرائيلى. ولكن الحكومات العربية سرعان ما شغلتها أمورها الداخلية وخلافاتها المشتركة عن الاستعداد الجاد لحرب قادمة مع إسرائيل.

تلك هى الجذور الحقيقية للأزمة.

وفى عام ١٩٥٦ وجدت إسرائيل فى تصميم بريطانيا وفرنسا على إسقاط حكم عبد الناصر فرصة لتحقيق هدف عزيز استشعرته مبكرًا ولكنه لم يتحقق.

وفى ١٩٦٧ كانت إسرائيل قد وعت وحلفاؤها درس الحرب السابقة، واستعدوا لجولة جديدة.

بداية الأزمة

بدأت أزمة حرب يونيو ١٩٦٧ في مايو ١٩٦٧عقب ورود أنباء عن حشود إسرائيلية على الحدود السورية، وواكبتها تصريحات «ليفي أشكول» رئيس وزراء إسرائيل، و«إسحاق رابين» رئيس الأركان، مفصحة فى سفور عن نية إسرائيل فى توجيه ضربة انتقامية وقائية على حد تعبيرهم ـ ضد سوريا لتُغير نظام الحكم فيها، ولو أدى ذلك إلى احتلال دمشق وذلك رداً على مساندة سوريا لنشاط الفدائيين الذى كان قد تزايد فى الفترة الأخيرة.

وإزاء التهديدات الإسرائيلية على أعلى مستوى سياسى وعسكرى بغزو سوريا، وإزاء الحشود الإسرائيلية على حدود سوريا التى أكدها وزير الدفاع السورى للمشير عبد الحكيم عامر، وبالنظر إلى الأبعاد الاستراتيجية الخطيرة لمثل هذا الغزو على الأمن القومى لمصر ـ صدر قرار رفع درجة الاستعداد فى القوات المسلحة إلى حالة الاستعداد القصوى، وأعلنت التعبئة العامة وتم حشد قواتنا فى سيناء.

وهنا يتبادر السؤال الآتى: هل تم اتخاذ هذا الإجراء من باب التهديد لتخفيف الضغط عن سوريا وأن عبد الناصر لم يكن يريد الحرب؟

ثم توالت الأحداث.

ومع الحشد المصرى للقوات على الحدود المصرية الفلسطينية، كان لابد من أن تطلب مصر من سكرتير عام الأمم المتحدة أن يسحب قوات الطوارئ الدولية على امتداد هذه الحدود تأميناً لسلامتها، وتمكيناً للقوات المصرية من مباشرة واجباتها إذا دعت الضرورة، وكان طلب مصر بسحب قوات الطوارئ الدولية يعنى تلك القوات المتمركزة على خط الحدود الشرقية مع استمرار إبقائها فى غزة وشرم الشيخ.

ولكن سكرتير عام الأمم المتحدة فى ذلك الوقت ـ «يوثانت» ـ لم يوافق على الانسحاب الجزئى، وأجاب على طلب وزير الخارجية المصرى بسحب جميع قوات الطوارئ الدولية من سيناء بما فيها القوات المتمركزة فى شرم الشيخ، وكذا تلك المتواجدة فى غزة، وهما المنطقتان اللتان لم يشملهما طلب مصر إلى سكرتير الأمم

المتحدة، ولا كان التخطيط العسكرى ولا تعليمات الحشد وخطط انتشار القوات فى سيناء التى صدرت حتى ذلك التاريخ تقوم على دخول قواتنا إليهما .

وهكذا وجدت القيادة المصرية أمامها مشكلة بالغة الخطورة نتجت عن قرار سكرتير عام الأمم المتحدة بسحب قوات الطوارئ الدولية من منطقة شرم الشيخ ، فالنتيجة الحتمية لهذا القرار هى أن تقوم قواتنا المسلحة بالتمركز فى هذه المنطقة واستعادة مواقعها فيها .

وبتقدم قواتنا المسلحة إلى شرم الشيخ كان حتميًا إغلاق مضيق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية ، فلم يكن من الممكن أن ترى قواتنا العلم الإسرائيلى يمر أمامها متحديًا السيادة المصرية على مياهها الإقليمية فى الخليج ونحن فى حالة حرب مع إسرائيل .

وكان جمال عبد الناصر قد دعا القيادات السياسية العليا إلى اجتماع فى منزله بمنشية البكرى ، وجرت مناقشة للتطورات السياسية والعسكرية منذ بدء الحشود المصرية فى سيناء ، وقدم المشير تقريراً عن تصوره لاحتلال شرم الشيخ .

وعرض الرئيس تقديره لاحتمالات المواجهة العسكرية مع إسرائيل منذ بدأ التهديد الإسرائيلى والحشد العسكرى المصرى ، موضحًا أن هذه الاحتمالات تتزايد إلى درجتها القصوى باحتلال قواتنا لمواقعها فى شرم الشيخ ، والإعلان عن غلق الملاحة الإسرائيلية فى خليج العقبة ، فأكد عبد الحكيم عامر استعداد قواتنا المسلحة لكل الاحتمالات .

وأبدى جميع الحاضرين رأيهم فى أنه من غير المتصور أن تعود قواتنا إلى شرم الشيخ فى غيبة الإعلان عن غلق الملاحة فى الخليج أمام دولة فى حالة حرب مع مصر تأكيداً للسيادة المصرية .

وقد اعتبر جمال عبد الناصر إغلاق مضيق تيران فى وجه الملاحة الإسرائيلية استعادة لحق سيادتنا على خليج العقبة كما كان الحال قبل حرب ١٩٥٦ .

فقد حدث بعد حرب ١٩٥٦ أن سمح لإسرائيل بحق الملاحة فى مضيق تيران وخليج العقبة واعتبارهما مياهًا دولية ، ووضعت الأمم المتحدة قوات الطوارئ الدولية فى منطقة شرم الشيخ بدلاً من القوات المصرية ، وبدأت السفن الإسرائيلية

تستخدم مضيق تيران فى غيبة القوات المصرية ولم تذكر وسائل الإعلام شيئًا عن ذلك عقب انسحاب اليهود من سيناء بعد حرب ١٩٥٦.

وكانت حكومات عربية قد قامت بحملات مكثفة حول وجود قوات الطوارئ الدولية فى شرم الشيخ متهمة جمال عبد الناصر باستخدامها ساترًا حتى لا يغلق الملاحة فى مضيق تيران أمام إسرائيل، ومواجهة القوات الإسرائيلية.

وكان موقف عبد الناصر من هذه القضية ينبع من إدراكه لأولويات الصراعات فى المنطقة، وتفادى الصدام المسلح مع إسرائيل قبل بلوغ التخطيط الكامل لأهدافه، ولكن حجم الهجوم أثر فى كثير من المسئولين حوله، حتى أن المشير عبد الحكيم عامر بعث ببرقية من باكستان حيث كان يحضر جلسات للمؤتمر الإسلامى عام ١٩٦٦؛ طالب فيها جمال عبد الناصر بسرعة الإعلان عن إغلاق الملاحة أمام إسرائيل فى المضايق.

ولقد ذكر لى جمال عبد الناصر أن تصحيح الموقف بعودة السيادة المصرية على مياهنا الإقليمية فى الخليج لم يبارح ذهنه منذ ١٩٥٦.

وعلى مدى الأيام حتى ٥ يونيو ١٩٦٧ لم تحاول إسرائيل تحدى القرار المصرى بالعبور فى خليج العقبة، ولكنها اعتبرت أن إغلاق مضيق تيران فى وجه الملاحة الإسرائيلية موجبًا لقيام حرب بينها وبين مصر، فلم يكن ممكنًا أن تسكت على هذا الإجراء وهى الدولة التى تقوم على فرض وجودها بالقوة على النحو الذى أوضحت، والخضوع للإرادة العربية مرة يعد - من وجهة نظرها - مقدمة لمخاطر بغير حدود، وفعلاً تم تشكيل وزارة حرب، وأسند منصب وزير الدفاع إلى «موشى ديان».

وبرغم كل شىء فإننى اليوم حين أعود بذاكرتى إلى الأحداث التى توالت منذ إعلان إسرائيل عن تهديداتها لسوريا حتى بدء القتال؛ لا أستطيع أن أمنع نفسى من التساؤل: هل لو لم يتم سحب قوات الطوارئ الدولية من شرم الشيخ بما ترتب عليه من إحلال قواتنا مكانها، واستخدام مصر حقها القانونى بغلق الملاحة فى الخليج أمام الملاحة الإسرائيلية؛ كانت ستتجنب الحرب مع إسرائيل؟ فى تقديرى أن ذلك لم يكن ممكنًا؛ فقد تنامت القوة المصرية داخليًا، وعربيًا، ودوليًا، مما دفع الولايات المتحدة وإسرائيل إلى قرار بالعدوان، وجد فى غلق الخليج فرصته الإعلامية المواتية.

وكان التقدير السياسى للرئيس جمال عبد الناصر هو أن الحرب واقعة لا محالة، وأذكر أنه أطلعنى مرة على صورة لميناء إيلات تم التقاطها وإرسالها إليه، وإن لم أفهم ما هو المقصود من ذلك.

وفى الوقت نفسه لم يكن جمال عبد الناصر يريد أن يكون هو البادئ بالحرب ليقلل بقدر الإمكان من مدى التدخل الأمريكى دعمًا للمجهود الحربى الإسرائيلى بحجة الدفاع عن دولة «وحيدة» فى مواجهة محيط عربى «معاد» و«معتد».

وبعث الرئيس الأمريكى «جونسون» إلى الرئيس عبد الناصر بدعوة إلى نسيان الماضى وتجنيب الشرق الأوسط والعالم الأعمال العسكرية، وأنه يود إرسال نائبه «هيوبرت همفرى» لزيارة مصر لبحث الموقف، وبعث الرئيس عبد الناصر ردًا يتفق فيه مع الرئيس الأمريكى فيما ذهب إليه من حيث تجنب الحرب، وشرح دوافع موقف مصر من حشد قواتها فى مواجهة التهديد الإسرائيلى السافر لسوريا، ورحب باستقبال نائب الرئيس الأمريكى، كما اتفق على أن يسافر زكريا محيى الدين نائب رئيس الجمهورية إلى «واشنطن» للتفاوض مع الرئيس «جونسون» وقد تحدد يوم ٥ يونيو ميعاداً لذلك، وفى نفس الوقت أبدى السوفييت تقديرهم بألا تكون مصر هى البادئة بالعمليات العسكرية.

وعقد عبد الناصر مؤتمرًا صحفيًا يوم ٢٨ مايو ١٩٦٧ وذلك قبل الحرب مباشرة أجاب فيه على أسئلة الصحفيين بثقة، وشرح كيف بدأت الأزمة بالحشد الإسرائيلى على سوريا، وتهديدات رئيس وزرائها باحتلال دمشق، وأن عودة القوات المصرية إلى شرم الشيخ تقود حتمًا إلى ممارسة مصر لحقوقها فى مضيق تيران، الذى لا يزيد عن ثلاثة أميال كلها مياه إقليمية مصرية وأن مصر لم ترتبط بأية معاهدات دولية بشأن الملاحة فى مضيق تيران، وأنه وفق اتفاقيات الهدنة بين مصر وإسرائيل فى ١٩٤٩ لا يجوز لأى من الدولتين استخدام المياه الإقليمية للدولة الأخرى. وقد قابلت الرئيس عبد الناصر بعد المؤتمر الصحفى فلاحظت عليه الانشغال العميق، ولا غرابة فالحرب واقعة لا محالة.

وكان تقدير الرئيس عبد الناصر أن إسرائيل سوف تبادر بتوجيه الضربة الأولى، وأنها ستوجه ضربتها إلى القوات الجوية، وذلك بالرغم من تأكيدات «جونسون» بأن الولايات المتحدة تعارض أى عدوان فى المنطقة، وأنها ستقف ضد من يبدأ

بالعدوان، وكان جمال عبد الناصر قد ذكر لى أنه طلب الاجتماع بقادة الجيش فى يوم الجمعة ٢ يونيو ١٩٦٧، وخلال الاجتماع عرض تقديره السياسى بأن الحرب واقعة لا محالة، وبأن اتجاه الضربة الإسرائيلية الأولى ستكون ضد القوات الجوية المصرية لكشف الغطاء الجوى عن بقية القوات والأسلحة؛ ليسهل على إسرائيل التعامل معها فى ظل تفوق جوى.

وشدد عبد الناصر على ضرورة اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتأمين القوات المسلحة ضد الضربة الأولى هذه والتى تضمن استيعاب القوات الجوية لها بأقل الخسائر قبل أن يتحولوا إلى الهجوم، ثم زاد عبد الناصر على ذلك أنه وفقًا لتقديراته فإن إسرائيل ستوجه ضربتها الأولى فى موعد يبدأ بيوم الأحد ٤ يونيو ويرجح أن يكون فى صباح الاثنين ٥ يونيو، ولم يجد هذا التحذير من جانب جمال عبد الناصر أى استجابة من قادة الجيش.

وعلى الجانب الشعبى كان الحماس للحرب فوارًا وامتلأت الشوارع باللافتات التى كتب عليها ما يؤكد انتصارنا على إسرائيل، وأننا سوف نتقابل فى تل أبيب، ولا عجب فى ذلك فقد سبق أن أعلن المشير عبد الحكيم عامر فى إحدى خطبه بمناسبة الاحتفالات بثورة ٢٣ يوليو أن لدينا أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط، وجدير بالذكر أن هذه اللافتات قد أزيلت فى لمح البصر عقب الهزيمة.

وأذكر أن انفعال السيدة أم كلثوم بالموقف كان غامرًا، ومشاركة منها بما يجرى حولها أعلنت أنها ستقيم حفلها الشهرى التالى فى «تل أبيب»، وكان من عادة السيدة أم كلثوم أن تقيم حفلاً غنائيًا فى اليوم الأول من كل شهر.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وجه «موشى ديان» من خلال الإذاعة الإسرائيلية الدعوة للسيدة أم كلثوم بالحضور إلى «تل أبيب» لإقامة حفلها الشهرى هناك حسب وعدها.

وعلى الجانب الإسرائيلى كانت الدعاية مختلفة تمامًا، وكانت الإذاعات الإسرائيلية تدعى أن العرب سوف يلقون باليهود فى البحر، وعلى كل عائلة يهودية فى أوروبا أن تدبر مكانًا لأطفال اليهود عندهم.

وقائع أيام الحرب

إسرائيل تبدأ الضربة الأولى

كنت على موعد مع الرئيس جمال عبد الناصر فى صباح يوم الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ وكان عادة يطلبنى للدخول عنده فى حوالى الساعة التاسعة والنصف صباحًا يرافقنى الدكتور أحمد ثروت، وكنت عادة أذهب فى حوالى الساعة التاسعة صباحًا إلى مكتب السيد/ محمد أحمد، السكرتير الخاص للرئيس، إلى أن يستدعينى جمال عبد الناصر.

ذهبت فى ذلك اليوم فى الثامنة والنصف صباحًا وفوجئت بالرئيس يستدعينى بمجرد وصولى، ولم يكن الدكتور ثروت قد وصل بعد، وحين صعدت إليه أبلغنى أنه لم ينم جيداً فى الليلة الماضية، وأنه استيقظ مبكراً جداً، وكان يبدو مشغول البال، وفجأة وقبل توقيع الكشف عليه سمعنا صوت صفارات الإنذار وكان الوقت يشير إلى التاسعة صباحًا.

اتصل عبد الناصر بالتليفون، وعلم أن إسرائيل بدأت الهجوم، وكان هذا أول علم له عن بدء قيام الحرب بين إسرائيل وبيننا، ولاحظت على الفور الجدية والصرامة التى كست وجه عبد الناصر الذى اعتذر عن إتمام المقابلة والكشف عليه، وقام ليرتدى ملابسه على عجل شديد.

انصرفت وذهبت إلى مكتب السيد/ محمد أحمد، وبدأت اتصالات جمال عبد الناصر بأن طلب الملك حسين، كما طلب الاتصال ببعض قيادات الجيش، ولم أدر بالطبع ما تم فى هذه المكالمات.

بعد ذلك توجه جمال عبد الناصر إلى مركز قيادة الجيش ليفاجأ بحجم الكارثة،

فقد قامت إسرائيل بضرب المطارات المصرية ودمرت حوالى ٨٥٪ من طائراتنا وهى على الأرض مكشوفة، ولكن كان موقف القوات الأرضية يبدو متماسكًا، وكان الاتجاه العام السائد بين العسكريين فى مبنى القيادة هو ضرورة التمسك بالأرض والدفاع عنها.

وكان واضحًا أنه بالرغم مما دار فى اجتماع عبد الناصر بقيادة الجيش يوم الجمعة ٢ يونيو ١٩٦٧، وبالرغم من أن قيام الحرب بين إسرائيل وبيننا كان مؤكدًا، ورغم أن مبادرة إسرائيل بالضربة الأولى كان معروفًا فلقد كان هناك تراخيًا لتلقى هذه الضربة التى أتت وكأنها مفاجأة للقادة العسكريين، مما أدى إلى تدمير سلاحنا الجوى، وتحقيق إسرائيل نصرًا كبيرًا لم تتوقعه هى نفسها.

بل والأخطر من ذلك أن المشير عبد الحكيم عامر الذى حضر اجتماع عبد الناصر بأعضاء مجلس قيادة الثورة فى منشية البكرى، واجتماعه بقادة الجيش يوم ٢يونيو ١٩٦٧، وسمع جمال عبد الناصر يحدد توقعاته لبدء العدوان فى صباح الاثنين ٥ يونيو لم يكن يتصرف عن اقتناع بذلك كله؛ فلقد اختار صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ ليكون فى طائرته فوق سيناء أثناء ضرب المطارات المصرية، ونتيجة لوجود طائرته فى الجو فى ظروف الطوارئ كانت هناك تعليمات عسكرية بتقييد المدفعية الأرضية خلال رحلة المشير! وحين عاد عبد الحكيم عامر إلى مكتبه على الفور كانت الضربة الإسرائيلية قد أنجزت معظم أهدافها ضد قواتنا الجوية.

لم تنشر وسائل الإعلام أى أنباء عن تدمير سلاحنا الجوى، وعلى العكس من ذلك كانت القيادة العامة للقوات المسلحة توالى إذاعة بيانات عسكرية معلنة عن انتصارات وهمية وتدمير أعداد كبيرة من الطائرات الإسرائيلية، وكنا نتابع النشرات الإخبارية الخارجية والبيانات العسكرية الإسرائيلية التى لم نكن نجد لها ذكرًا فى صحفنا.

وأذاع ديان أول بيان له بأن إسرائيل قامت بتدمير سلاح الجو المصرى، وأن هدف عدوانها هو تخليص مصر من حكم جمال عبد الناصر، ولكنها لا تضمر سوءًا للشعب المصرى!

قرار الانسحاب

فى يوم ٦ يونيو ١٩٦٧ ذهبت لزيارة جمال عبد الناصر ووجدته مهمومًا وفى حالة حزن شديد لم أره فيها من قبل، كانت مهمتى فى ذلك اليوم صعبة فقد طلبت منه أن يتناول إفطاره وأن يأخذ حقنة الأنسولين فأجابنى وصوته يقطر ألمًا: «مش قادر أبلغ اللى حصل».

فى هذا اليوم أصدر عبد الحكيم عامر قراره بالانسحاب حتى لا تعزل وتباد قواتنا فى سيناء، وأيًا يكون مدى سلامة قرار المشير عامر بالانسحاب بعد أن فقد الطيران دوره فى القتال، وأصبحت قواتنا المسلحة عارية أمام التفوق الجوى الإسرائيلى، فلقد تم اتخاذ القرار بسرعة وفى حالة من الانفعال والتوتر، بغير دراسة هادئة بينه - باعتباره القائد العام للجيش - وبين باقى القادة العسكريين لمعرفة المزايا والعيوب للانسحاب أو الصمود فى المواقع فى غيبة الغطاء الجوى.

ونتيجة لسرعة الانسحاب بغير تخطيط سليم له وما شابه من ارتباك وفوضى؛ كانت النتيجة أن تكدست الطرق بالمعدات والمركبات التى دمرها الطيران الإسرائيلى الذى امتلك سماء المعركة دون مقاومة، فخسرنا الجزء الأكبر من معداتنا التى حشدت فى سيناء دون أن تشترك فعليًا فى القتال، ثم أعقب ذلك قرار آخر بدفع الفرقة الرابعة المدرعة إلى خط المضايق لاحتلالها ولتأمين عملية الانسحاب، ولكن هذه الفرقة عجزت بدون غطاء جوى يحميها عن إيقاف تقدم القوات الإسرائيلية نتيجة تركيز الطيران الإسرائيلى عليها فى الصحراء المكشوفة، واضطرت إلى الانسحاب بعد أن منيت بخسائر فادحة.

هوارى بومدين يتصل بعبد الناصر

فى صباح يوم ٧ يونيو قابلت الرئيس جمال عبد الناصر الذى قال لى بلهفة مصحوبة بالأمل أن الرئيس هوارى بومدين اتصل به من الجزائر وطلب منه أن يؤجل الانسحاب، وأنه سوف يرسل إليه خمسين طائرة للمعاونة، ولكن الأمور سارت بأسرع مما كان متوقعًا، وتحطمت معداتنا فى سيناء قبل أن يصل هذا الدعم الجوى، ولا شك لدى فى أن عبد الناصر لم يكن حتى ذلك الوقت قد أبلغ بمدى الدمار الذى تعرضت له قواتنا البرية.

فى يوم ٨ يونيو ذهبت إلى الرئيس جمال عبد الناصر، ودق جرس التليفون فى وجودى ولم أدر من المتحدث، ولكنى عرفت معظم حديثه تقريبًا فقد كان عبدالناصر يكرر الكلام الذى يسمعه منه وكأنه يكرر كلمات تقرير يتلى عليه وهو فى حالة تركيز شديد لما يسمع من كلمات.

ذكر المتحدث لجمال عبد الناصر أن كل شىء قد انتهى، وأن الإسرائيليين يعدون صوب قناة السويس، قالها المتحدث بالإنجليزية وردَّدها عبد الناصر من ورائه:
They Are Galloping Towards The Suez Canal.

وذكر له المتحدث أن هناك قوة عبرت الحدود المصرية ودخلت إسرائيل، فرد عليه عبد الناصر وذهنه مستغرق «يبقى لازم يعتمدوا على أنفسهم.. ويتصرفوا».

وحين أعود اليوم بذاكرتى إلى هذه الواقعة أجدنى بين أحد احتمالين بخصوص هذا الخبر الأخير عن دخول قوة مصرية إلى صحراء النقب: فإما أن المتحدث كان يقرأ على عبد الناصر نصوص برقيات واردة من وكالات الأنباء الدولية، وبعضها يكون غير دقيق فيما يبعث به المراسلون جريًا وراء سبق صحفى، أو أن المتحدث نفسه تسرع فى نقل الخبر إلى عبد الناصر لكى يخفف من الموقف.

كان عبد الناصر حزينًا بعد سماع كل هذه الأخبار، وكانت حالته النفسية تعكس ألمًا عظيمًا ودفينًا، ولكن سرعان ما سيطرت شخصيته القوية على مشاعره وقال:

«لا يمكن أن أترك الأمور تسير هكذا.. لابد لى أن أواجه الشعب».

وكانت المسئولية الملقاة على عاتقى فى ذلك الوقت جسيمة؛ فقد مرض الدكتور ثروت مما اضطرنى أن أتولى كل شىء بنفسى.

وكان عبد الناصر فى بادئ الأمر يزن قبول وقف إطلاق النار من عدمه فى ضوء ثلاث اعتبارات:

١ ـ لم يكن مشروع قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار المعروض حتى ذلك الوقت مشروطًا بانسحاب إسرائيل إلى خطوط ما قبل حرب ١٩٦٧، بخلاف قرار الانسحاب الذى أصدره المجلس عام ١٩٥٦.

٢ ـ كان جمال عبد الناصر لا يثق فى التزام إسرائيل بوقف إطلاق النار حتى لو قبلناه نحن .

٣ ـ كان جمال عبد الناصر يريد أن يتعرف على رأى الشعب فى وقف إطلاق النار، وكان يقول لى :

«أنت بتقابل ناس كثير عايز أعرف رأيهم بخصوص قبولنا وقف إطلاق النار» .

وبعد ورود أنباء الهزيمة العسكرية لم يكن بد من قبول وقف إطلاق النار .

ومما لا شك فيه أنه كان لهزيمة يونيو ١٩٦٧ وانهيار الجيش بهذه السرعة دون أن يشترك فى القتال مع العدو وقعًا أليمًا على الشعب المصرى والعربى على السواء، وكان لا يمكن أن نستعيد ثقتنا بأنفسنا دون إنزال هزيمة بإسرائيل من خلال معركة حربية وهذا ما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣ ، علاوة على ذلك فقد أثرت الهزيمة على شعبية الاتحاد السوفييتى فى المنطقة .

وعلى الجانب الآخر كانت نشوة النصر الكبير وغير المتوقع والتى جعلت الإسرائيليين يرقصون طوال الليل فى الشوارع ؛ قد صعدت إلى رأس قادتها فأعلن «موشى ديان» أنه قد تم تحطيم الجيش المصرى والقضاء على روحه المعنوية تمامًا، ولن يقوم لمصر جيش قبل عشر سنوات قادمة .

وكان الجانب النفسى من أكثر ما اهتم به الإسرائيليون؛ لذلك نجد أنه فى الوقت الذى كان يمكنهم فيه أسر عدد أكبر من الضباط والجنود المصريين، فضّلوا أن يعود هؤلاء إلى أهلهم وهم فى حالة نفسية سيئة ليؤثروا على الروح المعنوية للشعب المصرى، لكى ييأس ويؤمن بأسطورة إسرائيل التى لا تهزم .

بعد ذلك وبتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ صدر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذى تقدمت به إنجلترا، وقد تمت صياغته بشكل لم يتفق العرب وإسرائيل على تفسيره . وقد تضمن القرار المبدأين التاليين :

أولاً : جلاء القوات الإسرائيلية المسلحة عن الأراضى التى احتلت فى الصراع الأخير .

ثانيًا : الاعتراف بحق كل دولة فى المنطقة فى أن تعيش فى سلام داخل حدود آمنة معترف بها حرة من التهديدات أو أعمال القوة .

كما نص القرار على عدم جواز احتلال أراض بالقوة ، وأكد على ضرورة حماية حرية الملاحة عبر الممرات المائية الدولية فى المنطقة ، وتحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين .

وكان هذا المشروع أقصى ما يمكن الحصول عليه فى ظل توازن القوى العسكرية فى المنطقة بعد حرب ١٩٦٧ ، وفى الوقت نفسه كان جمال عبد الناصر فى حاجة إلى قرار الأمم المتحدة ركيزة يبدأ منها العمل الوطنى فى المرحلة التالية .

قرار التنحى

فى صباح يوم ٩ يونيو ذهبت إلى جمال عبد الناصر مبكرًا فوجدته يذرع حجرته ذهابًا وإيابًا مستغرقًا فى تفكير عميق ، حيانى ورجانى برقته البالغة أن أتركه وحده ، فخرجت بعد أن اطمأننت على صحته .

وفى مساء ذلك اليوم شاهدت على التليفزيون جمال عبد الناصر يوجه بيانه إلى الأمة ويعلن قراره بالتنحى .

بدأ عبد الناصر بيانه فى تأثر والحزن يسبق كلماته وهو يقول «لقد تعودنا معًا فى أوقات النصر وفى أوقات المحنة ، وفى الساعات الحلوة وفى الساعات المرة ، أن نجلس معًا ، وأن نتحدث بقلوب مفتوحة ، وأن نتصارح بالحقائق مؤمنين أنه من هذا الطريق وحده نستطيع دائمًا أن نجد اتجاهنا السليم مهما كانت الظروف عصيبة ، ومهما كان الضوء خافتًا . . ولا نستطيع أن نخفى على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة خلال الأيام الأخيرة . . . » .

ومضى عبد الناصر يحلل الخطوات العامة للمعارك التى دارت على الجبهة المصرية والجبهة الأردنية والسورية ؛ موضحًا أن اتجاه الضربة الأولى ينبئ بتسهيلات أعطيت للعدو تفوق مقدرته ، وتتعدى المدى المحسوب لقوته ، ومن الثابت أيضًا أن قطعًا بحرية أمريكية كانت بقرب شواطئ العدو تساعد مجهوده الحربى وقيام عدد من الطائرات الأمريكية بعمليات الاستطلاع فوق بعض مواقعنا .

وحدد عبد الناصر المهام العاجلة أمام مصر وأولها أن نزيل آثار العدوان وأن نقف مع الأمة العربية القادرة بكل طاقاتها وإمكانياتها أن تصر على هذا الهدف، وقال: إن علينا أن ندرك درس النكسة وحقائقه: فإن القضاء على الاستعمار فى العالم العربى يترك إسرائيل بقواها الذاتية، ومهما كانت الظروف، ومهما طال المدى فإن القوة الذاتية العربية أكبر وأقدر على الفعل، ثم إن الأمر يقتضى كلمة موحدة تسمع من الأمة العربية كلها، فذلك ضمان لا بديل له فى هذه الظروف.

وبين عبد الناصر فحوى رسالة الرئيس الأمريكى له فى ٢٦ مايو ١٩٦٧ يطلب ألا نكون البادئين بإطلاق النار حتى لا نواجه نتائج خطيرة، كما أن السفير السوفييتى فى نفس الليلة طلب مقابلته بصفة عاجلة فى الثالثة والنصف من بعد منتصف الليل ليبلغه بطلب ملح من الحكومة السوفييتية: ألا نكون البادئين بإطلاق النار.

وعن المسئولية فى تحمل تبعات هذه النكسة قال عبد الناصر إنه على استعداد لتحمل المسئولية كلها، وأضاف «لقد اتخذت قراراً أريدكم أن تساعدونى عليه، فلقد قررت أن أتنحى تمامًا ونهائيًا عن أى منصب رسمى وأى دور سياسى» وأنه تطبيقًا للدستور المؤقت لسنة ١٩٦٤ فقد تم اختيار زكريا محيى الدين ليتولى منصب رئيس الجمهورية، ولأن يعمل بالنصوص الدستورية المقررة.

وما أن اختتم عبد الناصر بيانه إلى الشعب بأن «هذه ساعة للعمل وليست ساعة للحزن، إنه موقف للمثل العليا وليس لأية أنانيات أو مشاعر فردية.. وإن قلبى كله معكم وأريد أن تكون قلوبكم كلها معى.. وليكن الله معنا جميعًا؛ أملاً فى قلوبنا، وضياءً وهدى». حتى خرجت الألوف إلى الشوارع وسارت إلى داره، وطوال الليل وبرغم انطلاق صفارات الإنذار أكثر من مرة استمر تدفق الجماهير إلى العاصمة، وما أن بزغ الصباح حتى كانت الملايين فى شوارع القاهرة وحول بيته ترفض قراره بالتنحى، وتطالب ببقائه فى موقع المسئولية.

تردد أن خروج الجماهير بعد سماعها بيان التنحى كان مدبراً!.. ولكن لا يستطيع منصف عاش أحداث هذه الليلة أن يكرر هذا الادعاء، فما من تنظيم مهما كانت كفاءته يقدر على تنظيم خروج هذه المئات من الآلاف إلى الشوارع عقب

سماع قرار التنحى مباشرة، ولكن الناس جميعًا الذين كانوا مجتمعين حول أجهزة الراديو أثناء إلقاء جمال عبد الناصر بيانه إلى الأمة حتى بدت الشوارع طرقات فى مدينة مهجورة، وانطلقت مندفعة إلى الشوارع فور سماع خبر التنحى.

وكانت أحداث تلك الليلة أكبر استفتاء شعبى لجمال عبد الناصر.

رفض قرار التنحى وبقاء عبد الناصر فى موقعه

فى صباح ١٠ يونيو ذهبت والدكتور على البدرى والدكتور ناصح أمين إلى منزل جمال عبد الناصر واضطررنا إلى أن نذهب من طريق صلاح سالم، وأن نسلك من خلال الثكنات العسكرية لنتمكن من الوصول حيث كان الطريق الرئيسى إلى منزله مسدودًا بالآلاف الساهرة طوال الليل من حول منزله.

قابلنا جمال عبد الناصر الذى قال: إنه قرر أن يتنحى وأن يتحمل المسئولية الكاملة حتى لا تضيع البلد فى توزيع المسئوليات، ويتوه العمل الوطنى عن هدفه الأول؛ وهو تحرير الأرض. وقال: «إنه اختار زكريا محيى الدين لأن فى استطاعته أن يحصل على شروط أفضل من أمريكا».

وفى نفس اليوم عقد مجلس الأمة جلسة طارئة غلب عليها الانفعال الشديد للنظر فى قرار التنحى الذى رفضه الأعضاء جميعًا، وطالبوا عبد الناصر بالرجوع فى قراره، وقال أنور السادات رئيس المجلس للأعضاء: «لقد كان القرار الذى اتخذه الرئيس جمال عبد الناصر مفاجأة لى كما كان مفاجأة لجماهير أمتنا العظيمة الصابرة الصامدة؛ لأن الرئيس أراد ألا يُطلع أحدًا على قراره رغبةً منه فى أن يتحمل كل المسئولية. . وفيما يتعلق بى فإنى لا أقبل كما لا تقبل جماهير أمتنا قيادة غير قيادة جمال عبد الناصر».

وعند الظهر تلقى المجلس من جمال عبد الناصر رسالة قال فيها إنه كان يتمنى لو ساعدته الأمة الآن على تنفيذ القرار الذى اتخذه بالتنحى.

وأضاف قائلاً:

«يعلم الله أننى لم أصدر فى اتخاذ هذا القرار عن أى سبب غير تقدير المسئولية

تجاوبًا مع ضميرى ومع ما أتصور أنه واجبى، فإنى لأعطى هذا الوطن راضيًا وفخوراً كل ما لدى حتى الحياة إلى آخر نفس فيها».

وقال: «إن الكلمات تضيع منى وسط زحام من المشاعر يملك على كل جوارحى وأقول لكم بأمانة وأرجوكم تبليغ مجلس الأمة أننى مقتنع بالأسباب التى بنيت عليها قرارى، وفى نفس الوقت فإن صوت جماهير شعبنا بالنسبة لى أمر لا يرد؛ ولذلك فقد استقر رأيى على أن أبقى فى مكانى، وفى الموضع الذى يريده الشعب منى أن أبقى فيه حتى تنتهى الفترة التى نتمكن فيها جميعًا من أن نزيل آثار العدوان، على أن الأمر كله بعد هذه الفترة يجب أن يرجع فيه إلى الشعب فى استفتاء عام».

واختتم عبد الناصر رسالته بقوله: «والآن أيها الأخوة المواطنون فى كل مكان: أيديكم معى، ولنبدأ مهمتنا العاجلة . . وليمنحنا الله جميعًا تأييده وهداه . . » ومن هذه اللحظة بدأت أروع مراحل نضال جمال عبد الناصر، وبدأ مشوار جمال عبد الناصر نحو إزالة آثار العدوان بعد أن رفض الشعب الهزيمة وقبول شروط المنتصر التى حددها «ديان» فى إنهاء حكم عبد الناصر، بكل ما يرمز له ذلك من إنهاء مبادئ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وكان «موشى ديان» قد أدلى بتصريح قال فيه:

«إننى جالس اليوم أنتظر محادثة هاتفية من مصر فى أى لحظة تعرض فيها الاستسلام لشروطنا».

ولكن طال انتظار «ديان» لتلك المكالمة، ولم تستسلم مصر رغم الهزيمة العسكرية.

وابتداءً من هذا التاريخ، بدأ جمال عبد الناصر يسعى إلى التغيير، وإلى التطوير للقضاء على الأسباب التى قادت إلى هزيمة ١٩٦٧ فى نفس الوقت الذى مضى فيه على طريق بناء القوة العسكرية، لتسليح إرادة الرفض المصرى للهزيمة بالقدرة على تحرير الأرض المحتلة فى ١٩٦٧، فبعد فترة وجيزة من هزيمة يونيو ١٩٦٧ بدأت حرب الاستنزاف ومضت تتصاعد معلنة عن تطوير قدرات القوات المسلحة المصرية، حتى كانت هزيمة إسرائيل الساحقة فى حرب أكتوبر المجيدة ١٩٧٣، على

غير ما توقع قادة إسرائيل وأولهم بطلهم فى حرب ١٩٦٧ موشى ديان» .

وكان عنصر المفاجأة أهم ما تميزت به حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وكان من أهم العوامل التى أدت إلى تحقيق النصر ، وأذكر أن المشير أحمد إسماعيل قال لى حينما كنت أزوره أثناء مرضه بعد الحرب أنه كان يقوم بتضليل العدو بشتى الطرق حتى أنه أرسل زوجته إلى لندن للعلاج قبل الحرب مباشرة .

كان مشوار جمال عبد الناصر فى هذه المرحلة من ١٠ يونيو ١٩٦٧ وحتى رحيله فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ قصيراً بقياس السنين ، عظيمًا بقياس الإنجاز ، رهيبًا بقياس الجهد الذى بذل والمسئولية التى تبعت ذلك على كاهل أطبائه .

الصراع بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر

في مجال الحديث عن حرب يونيو ١٩٦٧ يجب الإشارة إلى الخلافات والصراع الخفي بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، فمما لا شك فيه أن هذه الخلافات أفقدت عبد الناصر السيطرة على الجيش وكانت ضمن أسباب الهزيمة في حرب يونيو ١٩٦٧.

قبل حرب يونيو ١٩٦٧ كان المشير عبد الحكيم عامر نائبًا لرئيس الجمهورية وقائدًا عامًا للقوات المسلحة، كما كان رئيسًا للجان الحراسات وتصفية الإقطاع، وكانت المراكز الرئيسية في الدولة تشغل بواسطة أعوانه، وكان عبد الحكيم عامر وأعوانه يسيطرون سيطرة تامة على الجيش مما جعل من المؤسسة العسكرية مركز قوة له شأنه.

وكان عبد الحكيم عامر أقرب الضباط الأحرار إلى قلب جمال عبد الناصر، وأوثقهم صداقة به وكانت العلاقة بينهما من المفاتيح الرئيسية لمن يتابع السياسة المصرية منذ قيام الثورة وحتى عام ١٩٦٧، وكانت هذه العلاقة تبدو صافية طوال تلك السنوات الخمسة عشر ولكن القريبين من متابعة الأمور العامة كانوا يعلمون أو يشعرون ببعض الصراعات على مستوى الممارسة؛ ولكن بالقطع ظل الرجلان صديقين على المستوى الشخصي.

ولقد بدأ الاختلاف السياسي - إذا جازت التسمية - بين الرئيس والمشير عبد الحكيم عامر عقب عدوان ١٩٥٦ نتيجة إدارة المعركة العسكرية، فلقد شعر الرئيس وقتها بحاجة الجيش إلى قائد محترف، ولكن المشير الذي كان ولاء الجيش قد انعقد له رفض الفكرة ووعد بالتطوير، وإزاء حجم التآمر الخارجي والداخلي على مصر في ذلك الوقت - وما بعده - ظل الرئيس حريصًا على ألا تقع البلاد فريسة لصراع

على السلطة مع الجيش - وهو دومًا أقوى المؤسسات فى أية دولة فى العالم الثالث - لأن ذلك كفيل بأن يتمكن منها أعداؤها .

ثم عاد الاختلاف إلى السطح مرة أخرى بل وتحول إلى صراع سياسى عام ١٩٦١ بسبب ممارسات مجموعة الضباط المحيطة بالمشير خلال سنوات الوحدة مع سوريا، والتى أدت إلى الانفصال الذى قاده ضباط سوريون يعملون فى مكتب المشير فى سوريا .

وأراد الرئيس فى ١٩٦٢ تشكيل مجلس للرئاسة يمثل القيادة السياسية على مستوى مجلس، وأن يفصل بينه وبين السلطة التنفيذية متمثلة فى الوزراء الذين تكون مسئوليتهم أمام المجلس المذكور، وكان من بين أهداف الرئيس من ذلك هو أن يتولى أمور الجيش قائدًا محترفًا، وأن يترك أعضاء المجلس أى مناصب تنفيذية يتولونها، ولكن المشير الذى قبل الفكرة عاد وتراجع عن قبوله لها ورفض التنازل عن اختصاصاته كقائد عام للقوات المسلحة، وذلك بتشجيع وتحريض من قادة المؤسسة العسكرية المحيطين به، وقدم استقالته فى ديسمبر ١٩٦٢ التى ذيلها بجملة تحمل التحذير الضمنى وعمد على طباعتها ونشرها .

وتبع ذلك اجتماع كبار قادة الجيش فى شبه مظاهرة عسكرية يعلنون تمسكهم بعبد الحكيم عامر قائدًا عامًا، وكانت تلك من أخطر التطورات التى مرت بها مصر الثورة؛ حيث بات واضحًا حجم الصراع للسيطرة على القوات المسلحة التى كانت أداة تأمين الثورة، وأداة التغيير حتى ذلك الوقت .

وعندما أحس جمال عبد الناصر بخطورة الموقف طلب من عبد الحكيم عامر سحب استقالته، وأن يحتفظ بجميع اختصاصاته مما شجع أعوان عبد الحكيم عامر على محاولة التطلع لمزيد من السلطة .

وخلال العامين التاليين على تلك الأحداث الخطيرة تمكن المشير عبد الحكيم عامر من تركيز العديد من السلطات فى يديه، واكتسب ولاءً أعمى من كبار القادة والضباط المحيطين به ممن استفادوا من المشير وسياساته، بل وتعدى نفوذه النطاق المباشر للجيش ليشمل المؤسسات المسئولة عن الدفاع عن الدولة ومنها المخابرات العامة برئاسة صلاح نصر، وفى العامين اللذين تليهما هذه المرحلة - أى حتى ١٩٦٧

-كان عبد الحكيم عامر حريصًا على إبعاد القائد الأعلى للقوات المسلحة ـ رئيس الجمهورية ـ من كل ما يتصل بأمور الجيش؛ خشية أن يتمكن الرئيس من عزله.

وقد ساعد المشير على توطيد سلطاته الفراغ السياسى الناجم عن ضعف الدور السياسى للاتحاد الاشتراكى.. التنظيم السياسى الوحيد فى ذلك الوقت.

وعلى ذلك النحو كانت خطوط العلاقة بين الرئيس والمشير: صداقة عميقة وقديمة على المستوى الشخصى، يشوبها الحرص والترقب السياسى الذى يمكن أن يكون لانفلاته آثاره المدمرة.

ولكن فى مواقف تتصف بأنها تاريخية فإن الأمر يحتاج إلى قرارات من ذات الصفة؛ لذلك كان أول قرارات عبد الناصر إثر الموقف التاريخى للشعب فى ٩ و١٠ يونيو هو تعيين القادة الجدد للجيش، وعزل المشير ومجموعته، فلقد آن للصراع السياسى أن يحسم ليقوم عبد الناصر بمباشرة مسئولياته التى كلفه بها الشعب يوم تمسك به ليقود مرحلة التحرير.

وكان المشير قد غادر مقر القيادة العامة للجيش يوم ٧يونيو، واعتكف فى منزله دون أن يقدم استقالته إلى الرئيس كتابة ودون أن يوضح نواياه مكتفيًا بالقول لمن حوله بأنه رفض طلب الرئيس عبد الناصر بأن يبتعد عن كل أمور الجيش، ولم يكن من السهل القطع فى ذلك الوقت لما يجول فى فكر المشير، ولذلك حاول عبد الناصر ألا يدخل فى صدام مباشر معه أو يتخذ أى إجراء ضده، أملاً فى تقديره لضرورات المرحلة القادمة. وظل المشير فى منزله بحراسته المعتادة يتمتع بكل الحرية فى الحركة وفى استقبال من يشاء.

إلا أن المحيطين بالمشير لم يكونوا على استعداد لأن يتركوا مناصبهم خاصة وقد أقلقهم موقف الشعب فى ٩و١٠ يونيو الذى أعاد عبد الناصر وحده، وأصبحوا بالتالى يشعرون بأن يوم حسابهم قد قرب، وقد لعب هؤلاء الدور الأكبر فى دفع المشير إلى تحدى السلطة الشرعية والتآمر عليها، مركزين له على أنه سيواجه مسئولية الهزيمة العسكرية وهو بعيد عن الجيش وتسببوا بذلك فى نهايته.

وبدأت مظاهر التحدى فى نفس اليوم الذى اتخذ فيه الرئيس عبد الناصر قراره

بتغيير قادة الجيش، فلقد قام ضباط المشير بمظاهرة فى مبنى القيادة مطالبين بعودة المشير، وتبع ذلك اقتحام بعض القوات لمبنى القيادة لذات الغرض، إلا أنهم تفرقوا تحت التهديد بالاعتقال ومحاكمتهم عسكريًا.

وتدريجيًا بدأ المشير فى تجميع أعوانه من قادة الجيش ووزير الحربية شمس بدران، وعززوا الحراسات من حول المنزل، وأقاموا المتاريس واستقدم المشير رجالاً مسلحين من قريته أسطال، ليحول منزله إلى حصن مسلح.

وبدأ المشير فى تكثيف اتصالاته داخل الجيش من خلال أعوان لشمس بدران، وكذلك بأعضاء فى المؤسسات السياسية كمجلس الأمة ومؤسسات الرأى فى الصحافة، وأعاد المشير طبع الاستقالة التى تقدم بها عام ١٩٦٢ وقام بتوزيعها على نطاق واسع، ووضح أن المشير يتحرك سياسيًا وعسكريًا مستغلاً موقف جمال عبد الناصر الذى اتصف بالحلم حتى ذلك الوقت، كما وقعت عدة أحداث استفزازية من ضباط المشير.

وفى أحد الأيام وكان ذلك فى النصف الثانى من أغسطس ١٩٦٧ وقبل سفرنا إلى الخرطوم لحضور مؤتمر القمة العربى، كنت فى زيارة للرئيس عبد الناصر للكشف الطبى المعتاد عليه فوجدته فى ضيق، وقال لى: إن أحد الضباط كان مطاردًا ودخل منزل المشير بالجيزة، واحتمى فيه وتبادل إطلاق النيران مع القوة التى كانت تطارده ولم ترغب القوة فى اقتحام منزل عبد الحكيم عامر.

ثم أردف قائلاً: أنا عارف إن عبد الحكيم راجل صعيدى وظننت أن حمايته لهذا الضابط كانت من باب الشهامة، ولكن اتضح لى أن الأمر أكبر من ذلك بكثير، وأن هناك مؤامرة مدبرة ضدى يقودها المشير.

ثم قال لى الرئيس بعد فترة صمت:

«أنا مش قادر أقطع بشئ بخصوص عبد الحكيم».

وفى اليوم التالى علمت من الرئيس أنه كانت هناك بالفعل مؤامرة وأنه تقرر تحديد إقامة عبد الحكيم عامر.

فقد اتضح أن المشير وشمس بدران قد وضعا بمعاونة عدد من الضباط المتقاعدين

من مجموعة تدين بالولاء لهما خطة عسكرية لتمكين المشير من الوصول سراً إلى القيادة العسكرية الميدانية الوحيدة في ذلك الوقت في الإسماعيلية باشتراك بعض قوات الصاعقة والطيران، وعند وصوله إلى هناك يتولى قيادة الجيش، ويجبر الرئيس على التنازل عن الحكم في ٢٧ أغسطس قبل سفره إلى الخرطوم ويتولى المشير مهام رئيس الدولة.

وفي ٢٥ أغسطس دعا جمال عبد الناصر عبد الحكيم عامر لحضور اجتماع في منزله بمنشية البكري يحضره السادة زكريا محيي الدين، وحسين الشافعي، وأنور السادات، وفي نفس اليوم كلف الرئيس وزير الحربية الفريق أول محمد فوزي بأن يقوم بتطهير منزل المشير من جميع القوات الموجودة فيه والقبض على كل العسكريين والمدنيين المرابطين فيه، مع عدم المساس بأي فرد من أسرة المشير.

وكنت أنا والدكتور على البدري والدكتور ناصح أمين في منزل الرئيس في ذلك الوقت، ولدى انصرافنا لاحظنا أن الجو كان متوتراً، وأنه كانت هناك حركة وإجراءات أمن غير عادية.

وفي الموعد المحدد وصل المشير إلى منزل الرئيس ودخل إلى الصالون وفي نفس الوقت اتجه ضباط الحراسة الخاصة بالمشير كعادتهم إلى مكتب السكرتارية الخاصة للرئيس وما أن دخلوا حتى طلب منهم ضباط الحراسة الخاصة للرئيس عبد الناصر تسليم أسلحتهم الشخصية ففعلوا دون مقاومة.

وبوصول المشير نزل الرئيس إلى الصالون وواجه المشير أمام الحاضرين بتفاصيل ما يجري في منزله، والمقابلات والمناقشات التي تجري طوال اليوم بينه وبين شمس بدران ومجموعته، وواجهه بخطة الانقلاب المدبر تنفيذه بعد ٤٨ ساعة، وطالبه الرئيس بالابتعاد عن الجيش تماماً، وذكره الرئيس بأنه منذ ١٩٥٨ يطلب منه ذلك دون جدوى لكي تتولى أمور الجيش قيادة متطورة محترفة، وحاول الحاضرون للاجتماع طويلاً أن يثنوا المشير عن أي تصرف متهور، وأن يقبل الابتعاد الكامل عن الجيش، وأن يقدر ظروف المرحلة القادمة.

وبعد عدة ساعات من هذه المناقشات التي كان المشير فيها رافضاً أي تجاوب مصراً على تمسكه بالقوات المسلحة غادر الرئيس الاجتماع وصعد إلى حجرته يائساً

من موقف المشير تاركًا معه السادة زكريا محيى الدين وحسين الشافعى وأنور السادات .

وقام المشير إلى دورة المياه، وسرعان ما خرج منها وارتمى على مقعد قائلاً بصوت عال : «أنا انتحرت علشان يعجبكم» وألقى على الأرض بشريط دواء بعد أن ابتلع ما فيه، وكان فى ظاهره شريط أقراص «ريتالين» وهو دواء منبه .

تم استدعاء الدكتور الصاوى محمود حبيب فوراً من مكتب السكرتارية الخاصة المواجه لمنزل الرئيس، فسارع الدكتور الصاوى بحقن المشير بمحلول يجبره على القئ ليفرغ كل ما فى معدته وتم إسعافه، وقد ذكر لى الدكتور الصاوى أن عبد الحكيم عامر كان محتقن الوجه وكان يعرق بغزارة .

وفى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى (٢٦أغسطس ٦٧)خرج المشير عبد الحكيم عامر جالسًا بين السيدين زكريا محيى الدين وحسين الشافعى فى سيارته السوداء التى وصل بها إلى منزل الرئيس فى الليلة السابقة بعد أن تم تغيير سائقها، وتوجه الجميع إلى منزل المشير بالجيزة، والذى كان قد تم تطهيره من أعوانه المسلحين ووضع المنزل تحت حراسة من قوات الجيش حيث حددت فيه إقامة المشير بين أولاده دون السماح له بالخروج، ودون السماح بالدخول أو الخروج لغير أولاده وأهله .

وفى صباح اليوم التالى دق جرس التليفون بمنزلى وكان المتحدث هو جمال عبد الناصر يعتذر عن مقابلة الأطباء فى ذلك اليوم حيث كان المفروض أن أقابله مع الدكتور ناصح أمين لإجراء بعض التحليلات . وكان جمال عبد الناصر قد أمضى ليلة مشحونة بالانفعالات لم يذق فيها طعم النوم . واتصلت تليفونيًا بالدكتور الصاوى محمود حبيب فأبلغنى بما جرى فى تلك الليلة .

ولكن عبد الحكيم عامر لم يتوقف عن التحرك السياسى والنشاط بين أعوانه سراً، مما اضطر الرئيس إلى اتخاذ قرار تحديد إقامته منفرداً فى مكان منعزل فى منتصف سبتمبر ١٩٦٧، وحين دخل عليه رئيس الأركان الفريق عبد المنعم رياض ليبلغه بقرار تحديد إقامته فى منزل آخر؛ سارع المشير بتناول شيء ما وأخذ يلوكه وسط صياح أبنائه بأنه قد تناول سمًا، فنقل على الفور إلى مستشفى المعادى حيث أجريت له كل الإسعافات اللازمة، ولم يغادر المستشفى إلا بعد تقرير أطبائها

بسماح حالته بذلك، ولكن بعد ظهر اليوم التالى عاد المشير إلى تناول مادة سامة معبأة فى شريط معدنى لأقراص «الريتالين» كان يخبؤها فى شريط لاصق أسفل البطن.

وحين أبلغ الرئيس بنبأ انتحار المشير فى مساء ذات اليوم أمر باتخاذ جميع الإجراءات القضائية وأن يتولى مهام التحقيق وزير العدل والنائب العام والإخصائيون بالطب الشرعى، وتم تشريح الجثمان وصدر قرار النائب العام بثبوت وفاة المشير منتحراً.

ونقل جثمان المشير إلى بلدته أسطال ليدفن هناك دون احتفال رسمى.

الفراغ بعد عبد الحكيم عامر

لا شك أن موت عبد الحكيم عامر قد ترك فراغًا كبيراً فى نفس جمال عبد الناصر فلقد كانا صديقين حميمين على المستوى الشخصى، وإن فرضت السياسة عليهما قدراً من الحرص والترقب، ولعل تقسيم السلطة بينهما قد فرض عليهما أن يكونا متلازمين، وأوجب استمرار الصداقة بينهما، فرغم أن الشعب كله كان من خلف عبد الناصر الذى تمتع بتأييد وشعبية المصريين كما لم يتمتع بها زعيم من قبله، إلا أن المشير كان يتمتع بالولاء المطلق من قادة الجيش الذين كانوا على استعداد للذهاب إلى أى مدى يطلبه منهم المشير.

كما أن نهاية المشير بالطريقة التى تمت وسط انفجار صراع على السلطة ومحاولته الانقلاب ضد صديقه عبد الناصر ثم انتحاره؛ أثرت فى نفس جمال عبد الناصر لأقصى مدى، فلقد عز عليه أن تفرض صراعات الحكم والسياسة تلك النهاية المأساوية لأقرب الأصدقاء.

وبعد اختفاء عبد الحكيم عامر من حياة جمال عبد الناصر لم يبق إلى جواره سوى أنور السادات وحسين الشافعى وعلى صبرى، وكان أنور السادات أقربهم إلى جمال عبد الناصر.

وكان أنور السادات شديد الاهتمام بالحالة الصحية لجمال عبد الناصر، وكثيراً ما

كان جمال عبد الناصر يطلعنى على أدوية أشار عليه أنور السادات باستعمالها .

وأذكر حينما كنا فى طرابلس أن قال لى جمال عبد الناصر : «شوف بقى اللى حيجرا لك من أنور لما نرجع مصر» ولما سألته عن السبب قال لى : «أنور لاحظ فى الصورة إننى لم أكن مرتديًا البالطو وكان الجو باردًا وقال بس لما أشوف الدكتور منصور» .

وفى الوقت نفسه كان جمال عبد الناصر يعتمد على أنور السادات فى حضور اجتماعات الاتحاد الاشتراكى وكان أنور السادات مرحبًا بذلك .

وبمرور الوقت بدأ أنور السادات يملأ الفراغ الذى تركه عبد الحكيم عامر ، وقبل سفر جمال عبد الناصر إلى الرباط فى ديسمبر ١٩٦٩ لحضور مؤتمر القمة العربى أصدر قرارًا بتعيين أنور السادات نائبًا لرئيس الجمهورية .

وفى مجال الحديث عن المواجهة بين الرئيس والمشير ، لا يمكن أن نغفل الحديث عن شمس بدران وصلاح نصر .

شمس بدران

كان شمس بدران يتولى وزارة الحربية حتى حرب ١٩٦٧ ، وكنت قد قابلته مرة واحدة حين دعانى لزيارة والده الذى كان يعالج فى مستشفى المعادى ، ولم يترك لدى انطباعًا إيجابيًا لما لاحظته من أنه كان متكلفًا وشديد الاعتداد بنفسه .

كان لشمس بدران دور رئيسى إلى جانب المشير قبل ١٩٦٧ ، وكذلك فيما وصلت إليه الأمور بين الرئيس والمشير بعد إقصاء الأخير فى ١١ يونيو ١٩٦٧ ، فلقد كان شمس بدران يعتمد على تنظيم سرى له من خريجى دفعته (دفعة ١٩٤٨) فى إدارة القوات المسلحة ، وعليهم كان اعتماده فى وضع خطة الانقلاب الذى دبره المشير ضد الرئيس بعد ١٩٦٧ .ولقد استدعاه الرئيس لمقابلته قبل تحديد إقامة المشير ، طالبًا منه الإفصاح عن تنظيمه داخل الجيش حتى لا يتسبب فى إحالة ضباط من دفعة ١٩٤٨ إلى التقاعد ممن ليسوا أعضاء فى تنظيمه ، ولكن شمس بدران رفض تمامًا الاعتراف بأسماء أعضاء تنظيمه ، كما أنه حين قرر الرئيس التنحى وأبلغ

المشير طالبًا منه أن يعتزل بدوره، طلب المشير من الرئيس أن يعين شمس بدران رئيسًا للجمهورية.

وحدث فيما بعد أن طلب شمس بدران أن أزوره فى سجن طره، وعندما دخلت عليه لم أعرفه لأول وهلة، فقد تغير شكله ونقص وزنه وغابت مظاهر الاعتداد الشديد بالنفس وبشكل ملحوظ، فقلت فى نفسى: سبحان مغير الأحوال!.

صلاح نصر

كان صلاح نصر مديرًا للمخابرات العامة، وقد بدأت معرفتى به من قبل أن يستدعينى الرئيس عبد الناصر لعلاجه، وكان صلاح نصر يشكو من ارتفاع بسيط فى ضغط الدم، وكنت أذهب للكشف عليه فى منزله فى مصر الجديدة أو فى مكتبه فى المخابرات العامة.

كان صلاح نصر يبدو بسيطًا ويميل إلى المزاح، وكم تساءلت وأنا معه: هل هذا هو حقيقة صلاح نصر الذى نسمع عنه؟ كان الاختلاف كبيرًا بين ما أراه حين أزوره وبين الصورة التى تتردد عنه.

وكان صلاح نصر كثير القراءة، ووضع بعض المؤلفات عن الحرب الاقتصادية، والحرب النفسية وطريقة تطبيقها فى مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو، وإن لم تكن هذه المذكرات مجالاً للحديث هنا.

وبعد حرب يونيو كنت أتردد على المخابرات العامة للكشف على صلاح نصر ولاحظت عليه عدم التفاؤل بعد الهزيمة واشتممت من أحاديثه أنه يحاول إلقاء اللوم على الرئيس جمال عبد الناصر، وإيجاد الأعذار للمشير ورجاله ثم قال: «مافيش فايدة من الروس ولازم نتصل بالأمريكان».

لم أعجب أن يحاول صلاح نصر إلقاء مسئولية الهزيمة على الرئيس فقد كان من أتباع المشير عبد الحكيم عامر، ولكن ما أدهشنى حقيقة هو أن يفكر مدير المخابرات العامة فى الاتصال بالأمريكان بعد أن ألحقت بنا إسرائيل هذه الهزيمة وهو يعلم أن الاتصال بهم فى هذه الظروف التى كانت قدرة مصر العسكرية فيها صفرًا وتفوق إسرائيل العسكرى كاسحًا لا يعنى إلا الاستسلام.

وفى أحد الأيام وجدت صلاح نصر فى حالة توتر عصبى شديد واختفت الابتسامة التى كثيراً ما كانت تبدو على وجهه، وعرفت أن سبب ذلك كان حديثًا صحفيًا قرأه «لموشى ديان». وحين سئل الأخير فى الحديث: لماذا لم تدخل القاهرة بعد هزيمة يونيو؟ أجاب بوقاحة وغطرسة: «كانت القاهرة تفتح لى ذراعيها ولكنى لم أدخلها حتى لا أضطر إلى إطعام ثلاثين مليون خنزير»!

وفى صباح اليوم التالى وكنت فى مستشفى القصر العينى وصلت سيارة من المخابرات العامة، وطلبوا منى الحضور فوراً لزيارة صلاح نصر فى مكتبه حيث أصيب بأزمة قلبية. فذهبت فى الحال فوجدته راقداً فى حجرة نوم صغيرة مجاورة لمكتبه فى جناح رئيس المخابرات العامة، وبالكشف عليه وجدت أنه مصاب بجلطة فى الشريان التاجى للقلب مصحوبة باضطراب فى ضربات القلب، وقد جاءته هذه الأزمة كما ذكر لى نتيجة الانفعال الشديد طوال اليوم السابق إثر قراءته ذلك الحديث الذى أدلى به «ديان». وقمت بعلاجه أنا والدكتور رفاعى كامل حتى أمكن السيطرة على الأزمة فى المساء.

وبعد أن خرجت من عنده منصرفًا عاد لاستدعائى وقال لى: «أنا عايز أشوف جمال عبد الناصر لأنى عايز أنصحه».

توقفت عند كلماته لحظة، وفكرت فيها طويلاً، فهل يكون طلب رؤية مدير المخابرات العامة لرئيس الجمهورية عن طريقى!! المفروض أن مدير المخابرات لديه القدرة على الاتصال المباشر بالرئيس، وبينهما أكثر من خط تليفونى لذلك، فهل كان الرئيس يؤجل رؤيته فى هذه الفترة لسبب محدد أو نتيجة انشغاله التام بتصفية نفوذ مجموعة المشير عامر كخطوة فى سبيل إعادة البناء العسكرى؟! أم ترى كان هناك ما يقلق صلاح نصر على نفسه ومركزه، وجعله يطلب منى أن أنقل للرئيس رغبته فى رؤيته لتردد صلاح نصر فى المبادرة بالاتصال به مباشرة؟!

ولم أفعل شيئًا إزاء هذا الطلب، فقد كان السيد/ محمد أحمد السكرتير الخاص للرئيس قد اتصل بى تليفونيًا فى المخابرات العامة ليستفسر عن حالة صلاح نصر خلال علاجى له من أزمته القلبية، وأخبرنى أن الرئيس سيزوره فى الصباح، وبالفعل حضر جمال عبد الناصر فى اليوم التالى لزيارة صلاح نصر، وكان بادى

التأثر لما أصابه، ولم أعرف ماذا دار بينهما فى تلك الزيارة ولا تلك «النصائح» التى كان صلاح نصر يود أن يقولها له.

وظل ترددى على صلاح نصر إلى أن تحسنت صحته وطلبت منه بعد ذلك الراحة والابتعاد عن العمل لمدة شهرين.

وفى أواخر شهر أغسطس ـ وبعد سقوط مجموعة المشير تبين لجمال عبد الناصر من أقوالهم ومن مصادر أخرى أن صلاح نصر كان مشاركًا فى المؤامرة التى كان يدبرها المشير ضده، فتم تحديد إقامة صلاح نصر.

وبدأت التحقيقات فى المخابرات العامة لمراجعة نشاط الجهاز والوصول إلى من عساه يكون أيضًا من مجموعة المشير فيه، وكشفت هذه التحقيقات جوانب خفية لنشاط الجهاز تحت قيادة صلاح نصر، ولم يتردد جمال عبد الناصر فى اتخاذ عدة قرارات لتطهير الجهاز كما اتخذ قراره بتقديم صلاح نصر للمحاكمة إزاء ما تبين من نتائج التحقيق.

وخلال التحقيقات طلبنى صلاح نصر فى منزله حيث حددت إقامته وبدأ يهاجم الرئيس ويكيل الشتائم لسامى شرف مدير مكتب الرئيس للمعلومات وهو فى حالة هستيرية. ولما حاولت تهدئته قال: «أنا عايزهم يسمعونى ويحبسونى فليس من المعقول أن يترك مدير المخابرات حرًا ومعه كل أسرار جهاز المخابرات، فهو إما أن يقتل وإما أن يحبس وأنا لا أريد أن أقتل».

وبالفعل تم اعتقال صلاح نصر ليس لأن لديه أسرار جهاز المخابرات العامة، فكم من رئيس لهذا الجهاز تركه إما إلى منزله أو إلى عمل آخر، وإنما كان اعتقاله إثر ما تبين فى التحقيقات التى أمر بها الرئيس، ثم كانت محاكمته وسجنه تنفيذًا لحكم قضائى.

وأودع صلاح نصر سجن أبو زعبل بعد الحكم عليه، وكان يطلبنى لزيارته وقد عاودته الأزمة القلبية كثيرًا، وكانت الحراسة مشددة عليه بحيث يصعب أن يتصل بأحد لإسعافه فقدمت تقريرًا طلبت فيه وجوب نقله إلى المستشفى، وبالفعل وصل هذا التقرير إلى جمال عبد الناصر الذى وافق على ما جاء فيه، وتقرر نقل صلاح

نصر إلى مستشفى المعادى، ولكنه رفض وقال لى : «إنه يخشى على حياته فى حالة دخوله مستشفى المعادى» ، وطلب تحويله إلى مستشفى قصر العينى رغم علمه بأن الإقامة هناك غير مريحة فأجيب لطلبه .

وحدث بعد ذلك أن كثرت عليه الأمراض وأخذت صحته فى التدهور وتم الإفراج عنه لسوء حالته الصحية وظل يعانى من المرض إلى أن انتقل إلى رحمة الله ، وأسدل الستار على حياة صلاح نصر .

عبد الناصر ومعركة إعادة البناء

كانت ثانى دوافعى لأن تكون المرحلة التالية على حرب ١٩٦٧ هى مجال التركيز فى مذكراتى هذه، هو يقينى بأن هذه الفترة كانت أروع مراحل نضال الرئيس جمال عبد الناصر على الإطلاق، فقد تفجرت فيها جميع مواهبه القيادية والفكرية، وتبلورت فيها حنكته السياسية التى نضجت بتجربة السنين. وكانت هذه المرحلة فى نفس الوقت أكثر المراحل إرهاقًا وأثرًا على حالته الصحية بتأثير الجهد الخارق الذى بذله فيها.

ففى هذه المرحلة من تاريخ ثورة يوليو بلغ التحدى لأهداف الثورة وسياستها قمتها بلجوء أعدائها إلى المواجهة العسكرية التى انتهت بهزيمة ثلاث دول عربية هى مصر، وسوريا، والأردن. وبدأت هذه المرحلة بقضية كبرى واضحة وملحة وهى : أن جزءًا غاليًا من تراب الوطن محتل ولابد من تحريره.

حقيقة أن الثورة قد بدأت وأرض مصر محتلة بقواعد بريطانية، ولكن طبيعة الاحتلال صارت مختلفة فى ١٩٦٧ ؛ فالوجود العسكرى البريطانى فى مصر كان يقوم على اعتبارات تاريخية طويلة تتصل بقضية الاستعمار، وكان استمراره معتمداً على نظام سياسى داخلى متحالفًا معه، وبمعنى آخر كان الوجود البريطانى أمرًا واقعًا، وحقيقة مقبولة من النظام السياسى فى مصر، وكان هذا القبول الفعلى هو الغطاء القانونى والشرعى لاستمرار قيادة القوات البريطانية فى الشرق الأوسط والقواعد البريطانية على أرض مصر.

وحين أسقطت الثورة النظام السابق وأنهت الملكية وفرضت على بريطانيا بحث مطلب الجلاء، فلقد نزعت الغطاء القانونى والشرعى عن الاحتلال العسكرى وأجبرت بريطانيا على قبول مفاوضات الجلاء التى انتهت بتحديد مواعيده، ولهذا

فإن بريطانيا لم تجد غير العدوان المسلح الذى قامت به عام ١٩٥٦ بالاشتراك مع كل من فرنسا وإسرائيل فى محاولة يائسة للعودة بالأمور إلى سابق عهدها، وإسقاط حكم عبد الناصر.

ولكن حرب ١٩٥٦ انتهت بانتصار سياسى لثورة يوليو أرست نموذجًا للعالم الثالث كله، وفرضت على دول العالم كله موقف التأييد للدولة الصغرى التى تقاتل فى إصرار جيوش دولتين كبيرتين؛ مما زاد فى شعبية جمال عبد الناصر عالميًا حتى أصبح يلقب بمحرر الشعوب، وقاهر الاستعمار، وهذا ما لم تقبله إسرائيل وحلفاؤها. وبدأت منذ ذلك الحين التخطيط لحرب قادمة.

وفى هذا المجال أذكر أنه حينما سافر الدكتور على البدرى إلى إحدى دول أمريكا اللاتينية لحضور مؤتمر للسكر كان منعقداً هناك؛ أن وجد فى الأسواق أربطة عنق كتب عليها ناصر محرر الشعوب، فاشترى واحدة منها وأهداها لجمال عبد الناصر الذى أسعده ذلك كثيراً.

أما فى حرب ١٩٦٧ فلقد جاء الاحتلال لسيناء والضفة الغربية والمرتفعات السورية بعد استيعاب القوى المعادية للثورة لدروس حرب ١٩٥٦؛ فالعدوان قامت به دولة صغيرة من دول العالم الثالث وإن كانت لها أطماعها الإقليمية المدعومة بتحالفات دولية وبدعم عسكرى بغير حدود من قوى كبرى، فضلاً عن أنها تعتبر نفسها امتداداً للقوى السياسية فى الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، وتعبيراً عن مصالحها الاستعمارية فى الشرق الأوسط، وحامية عسكرية لها. ومن هنا كانت مساندة هذه القوى لأطماع إسرائيل الإقليمية ومباركتها لهذا الاحتلال.

وفى حرب ١٩٦٧ جاء الاحتلال من دولة تمارس ما هو أبشع من الاستعمار التقليدى وهو الاحتلال الاستيطانى الذى يقوم على احتلال أرض ثم تغيير واقعها بطرد سكانها، وتغيير معالمها وهويتها، ولها فى ذلك تاريخ طويل منذ بدء الهجرة اليهودية الجماعية إلى فلسطين، ومنذ قيام دولة إسرائيل فيها عام ١٩٤٨.

ومن ناحية أخرى كانت قضية احتلال الأرض فى عام ١٩٦٧ وطبيعة الصراع الذى تجسده هذه القضية مختلفًا تمامًا عن قضية الاحتلال البريطانى لمصر؛ فالأخير كان ببساطة تواجداً عسكريًا مباشراً من قوة كبرى على أرض دولة صغرى بغرض خدمة أهداف الدولة الكبرى.

أما فى ١٩٦٧ فكان الاحتلال هو رهن للأرض بغرض كسر إرادة الثورة المصرية كى تتخلى عن أهدافها الداخلية والخارجية، وبهدف إسقاط نظام هو نموذج للتقدم والتنمية، يقوم على علاقات اجتماعية واقتصادية محددة داخليًا وعلاقات خارجية تخدم هذا النموذج وتؤيده.

وكسر الإرادة الثورية المصرية وفرض نموذج مختلف للسياسة والتنمية إنما يستهدف تأمين الوجود الصهيونى فى النهاية، وتمهيد الطريق للأهداف الاستراتيجية الصهيونية.

ومن هنا فإن قضية احتلال الأرض فى عام ١٩٦٧ - إذا قورنت بقضية الاحتلال البريطانى التى واجهتها الثورة فى ١٩٥٢ كانت أكثر إلحاحًا، وأشد خطورة على الوجود العربى كله والمصرى خاصة، وكانت حتمية تحرير الأرض تمثل أهم ما يشغل جمال عبد الناصر فى هذه المرحلة، وكان يقول: "لا يعلو صوت فوق صوت المعركة".

كان على جمال عبد الناصر مواجهة تحديات كثيرة وكبيرة قابلته بعد الهزيمة.

كان أمامه تحدى إعادة البناء العسكرى فى ظل احتلال إسرائيل لأراضى ثلاث دول عربية.

وكان أمامه تحدى إعادة البناء السياسى لكل مؤسسات الدولة، والقضاء على السلبيات فى الحكم التى قادت إلى هزيمة ١٩٦٧.

وكان أمامه العمل على دعم التضامن العربى بما يخدم معركة التحرير وإزالة آثار العدوان.

وكان أمامه دعم موقف مصر لدى العالم الخارجى بحيث يضمن أقصى مساندة من إحدى القوتين العظميين، ويجبر الأخرى على أن ترى أن انحيازها لمطلب لإسرائيل المتغطرسة بعد انتصار ١٩٦٧ ؛ يهدد مصالحها فى كل المنطقة.

ومن هنا فإنه خلال الفترة ما بين يونيو ١٩٦٧ ورحيل جمال عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ (أى حوالى ثلاث سنوات) شهدت مصر أحداثًا كبارًا وعاش جمال عبد الناصر أكبر فترات تاريخه السياسى والنضالى.

ولكن العبء على صحته كان رهيبًا .

فكانت الأزمة القلبية الأولى فى سبتمبر ١٩٦٩ وتلتها بعد عام واحد الأزمة القلبية الثانية التى أودت بحياته فى سبتمبر ١٩٧٠.

وكان جمال عبد الناصر يعلم يقينًا مدى تأثير الإرهاق فى العمل وكثرة الانفعالات على حالته الصحية، إلا أنه كان يرى أن مقتضيات عمله الوطنى حتى التحرير الكامل هى الاستثناء الوحيد الذى يبرر له الخروج على نصائح الأطباء.

إعادة البناء العسكرى

كان خروج الملايين من أبناء الشعب متمسكين بقيادة جمال عبد الناصر فى يومى ٩و١٠ يونيو عاملاً حاسمًا فى تاريخ مصر المعاصر، فلقد كان عبد الناصر يدرك الأسباب الجوهرية التى قادت إلى الهزيمة العسكرية وكان يعلم أين بداية الطريق، ومتطلبات السير فيه من عرق وتضحيات لأمة بأسرها حتى تستعيد كرامتها وتحرر ترابها الوطنى.

ومن هنا فإن موقف الشعب فى يومى ٩ و١٠ يونيو وتمسكه بعبد الناصر فى المرحلة التالية كان تكليفًا لجمال عبد الناصر بأن يعمل على إزالة آثار العدوان على أسس فكر ومبادئ ثورة الشعب عام ١٩٥٢.

وكان أول الواجبات التى استشعرها جمال عبد الناصر من حيث الأولوية هى إعادة البناء العسكرى ليكون لمصر جيش قادر على خوض التحدى وتحرير الأراضى العربية المحتلة، ولم يكن ذلك ممكنًا إلا بتغيير رأس وقمة القوات المسلحة متمثلة فى قائد الجيش وكبار القادة العسكريين الذين قادوا إلى ما جرى فى ميدان القتال، وليس فقط بأدائهم العسكرى، وإنما بمواقفهم السياسية طوال عشر سنوات مضت.

وفى يوم ١١ يونيو ١٩٦٧ - أى بعد ٢٤ ساعة من قرار الشعب أن يتولى عبدالناصر مسئوليات رئيس الدولة فى مرحلة إزالة آثار العدوان - أصدر الرئيس قراره بتعيين الفريق محمد فوزى قائدًا للقوات المسلحة، وتلته مجموعة من القرارات بتعيين القادة الجدد للجيش.

ومن اليوم الأول لممارسة مسئولياته الدستورية فى تلك المرحلة، كان فكر عبدالناصر صافيًا وواضحًا من حيث الإطار الاستراتيجى لتحرك مصر نحو بلوغ هدفها فى تحرير الأرض، ولكن كان يعلم أيضًا بالنتائج التى ستترتب على أول قراراته على هذا الطريق، وهى إعفاء المشير عبد الحكيم عامر، ومجموعة القادة على رأس القوات المسلحة.

كان عزل المشير عبد الحكيم عامر وإسقاط المجموعة المحيطة به والمنتفعة منه فى داخل الجيش، وفى أجهزة الأمن هى المدخل الوحيد للتغيير الجذرى الذى أراده جمال عبد الناصر أن يشمل النظام السياسى للدخول إلى مرحلة جديدة وشاقة وخطيرة، وكان هو الشرط الأكيد لإمكان إعادة بناء القوات المسلحة، ولقد ذكر لى جمال عبد الناصر إنه عرض على عبد الحكيم عامر أى منصب يريده فى الدولة بما فى ذلك نائب رئيس الجمهورية، ولكنه رفض وتمسك بالجيش.

وعلى الجانب الآخر كان الإسرائيليون عقب حرب يونيو ١٩٦٧ يحاولون التأثير على الشعب بشتى الطرق لإسقاط حكم جمال عبد الناصر فكانوا على الضفة الشرقية من القناة يتعمدون استفزاز الجنود والأهالى بتوجيه الإهانات والشتائم إليهم وإلى جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، وصدرت التعليمات بعدم الرد، فلم يكن فى قدرتنا عمل شيء فى ذلك الوقت.

كما كانت إذاعة إسرائيل توجه إهانات واستفزازات مماثلة، وكنا نقرأ ذلك فى النشرات الإخبارية التى كانت تصل إلى رئاسة الجمهورية باستمرار، وكان عبدالناصر حريصًا على قراءتها ضمن متابعته لكل ما يكتب وينشر فى إسرائيل، والعالم العربى، والعالم الخارجى.

وفى نفس الوقت بدأ الإسرائيليون حرب أعصاب ضد جمال عبد الناصر فقد قال لى أكثر من مرة: إن الإسرائيليين يتحدثون عن إقامة رءوس كبارٍ لعبور القناة والزحف إلى القاهرة.

وكان عبد الناصر خلال هذه الفترة يحث الشعب على الصمود وعدم الاستسلام كما كان يحاول رفع روحه المعنوية وكان دائمًا يقول: "إن اليهود وإن كانوا قد هزمونا عسكريًا فإنهم لن يستطيعوا أن يهزموا إرادتنا وأن الحرب يوم لك ويوم عليك».

ومن ناحية أخرى فإن الشعب المصرى الذى يعبر بالنكتة عما يعانيه كوسيلة للترويح تتفق وخفة الدم التى تميز بها بدأ يردد النكت على الجيش بعد هزيمة ١٩٦٧.

ومن قبل ١٩٦٧ أطلقت عدة نكات سياسية، وكان الرئيس حريصًا على أن يسمعها ليشارك الناس أحاسيسهم وشكاواهم، وكان يضحك عليها ولكن لم يهتم بها كثيرًا إلا أنه حين كثرت النكات على الجيش بعد الهزيمة أثر ذلك على جمال عبد الناصر نفسيًا، وكان يقول لى: إن الجيش لا يستحق كل ذلك، فالضباط والجنود لم يتح لهم أن يحاربوا ضمن تشكيلاتهم كجيش محارب، ومن أتيحت لهم فرصة القتال أثبتوا بطولات وفدائية لم تعرف لأن حجم الهزيمة غطى عليها.

وكان جمال عبد الناصر مؤمنًا بقدرة قواتنا المسلحة لو أتيحت لها الفرصة العادلة من الإعداد والتدريب والقيادة، وكان يقول لى: «إن أولادنا لم يختبروا والغلطة فى قياداتهم». وبلغ من تأثر عبد الناصر بحملات النكت على القوات المسلحة أن أشار إليها فى إحدى خطبه طالبًا من الشعب ألا يردد النكات حرصًا على معنويات أفراد الشعب فى القوات المسلحة فى مرحلة البناء. وبالفعل انخفضت حدة الحملات بعد ذلك إلى حد بعيد.

إعادة تنظيم الجيش

كان أول أعمال إعادة تنظيم الجيش من بعد صدور قرار تعيين الفريق أول محمد فوزى قائدًا عامًا، والذى أعقبه تصفية مجموعة المشير - هو اختيار القيادات العليا للجيش على أساس الكفاءة العسكرية والسمعة الحسنة والقدوة، وقد قام الرئيس بعدة اجتماعات مع القادة العسكريين لينقل إليهم رؤيته لتحديات ومتطلبات مرحلة التحرير، ودور القوات المسلحة كجيش محترف يجب أن يبتعد تمامًا عن السياسة وألا يكرر سلبيات الماضى التى قادت إلى إلهاء القادة فى أطماع سياسية أو شخصية، فانصرفوا عن مهامهم الرئيسية وظهرت البيروقراطية العسكرية على حساب الكفاءة والاستعداد والتدريب؛ فكانت هزيمة ١٩٦٧ .وقد كانت اجتماعات الرئيس بالقادة العسكريين جزءًا أساسيًا من جدول أعماله طوال الفترة من ٦٧ حتى رحيله فقد عقدت مئات الاجتماعات مع ضباط القيادة العامة وضباط

الفروع الرئيسية للجيش وحتى مع قادة الكتائب فى المراحل الهامة من حرب الاستنزاف، وكانت هذه الاجتماعات تستمر الساعات الطوال.

إستراتيجية العمل الوطنى

وقد أوضح عبد الناصر لقادة الجيش - وهذه المرحلة لم تزل فى بدايتها - رؤيته الاستراتيجية للعمل الوطنى حتى بلوغ تحرير الأراضى المحتلة.

وكانت الخطوط العامة لفكر عبد الناصر الاستراتيجى كما طرحها على القادة العسكريين ليكون عملهم فى إطارها هى التالية:

- ضرورة الصمود العسكرى السريع أمام العدو وإقامة خط دفاع أول أمامه غرب القناة.
- ضرورة الحرص الشديد على تلاحم الجيش والشعب والحكومة معًا، وأن يعلوا الجميع فوق آلام الهزيمة، وأن يتوحدوا فى العمل المنسق حسب متطلبات تحرير الأرض. ودعمًا للتنسيق على مستوى الاستراتيجية والسياسات العليا قرر الرئيس أن يتولى رئاسة مجلس الوزراء والاتحاد الاشتراكى إلى جانب رئاسة الجمهورية.
- إن تحرير الأرض التى احتلت فى ١٩٦٧ لن يتم بغير القوة المسلحة لأن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة. وكل محاولة لاسترداد الحق بغير سند من القوة العسكرية القادرة على التحرير بالحرب فى ميدان القتال هى محاولة مصيرها الفشل؛ لأن العدو - وهو أمريكا وإسرائيل - يسعيان إلى فرض شروطهما التى نرفضها، وأن يفرضا علينا "السلام الإسرائيلى" الذى لا يختلف عن الخضوع والاستسلام.
- نظرًا لأننا نحتاج لفترة لإعادة بناء الجيش القوى القادر، ولإعداد الدولة للحرب، قدرها الرئيس فى ذلك الوقت بثلاث سنوات، فلابد أن نسير مع مشروعات الحلول السلمية التى ستقدم لنا وليكون استعدادنا العسكرى للحرب جاريًا تحت غطاء ومظلة دبلوماسية، ولكن الحديث عن الحلول

الدبلوماسية لا يجب أن يشغل قادة الجيش عن مهمتهم الأصلية فى بناء جيش محترف يخوض معركة التحرير.

- لابد من العمل عربيًا لتكون معركة التحرير معركة عربية إسرائيلية وليست مصرية إسرائيلية، ولابد من إشراك جميع الدول العربية فى المعركة - وليس فقط دول المواجهة - لأن الأراضى التى احتلت هى الأراضى العربية، والقدس ملك لكل العرب، فعلينا أن نسعى لمشاركة جميع الدول العربية فى المعركة وأن ننسق ونوحد القرارات معها وفق التزام عربى قومى.
- يجب توطيد الصداقة مع الاتحاد السوفييتى، ويجب أن نشعره بأنه شريكنا فى الهزيمة لأننا كنا نمسك بسلاحه، وأن يتحمل أعباء مدنا بالسلاح الحديث المختلف عما قبل ١٩٦٧، وبالخبراء والمدربين؛ لنكسب الوقت، وعلينا أن نثبت له جديتنا فى إعادة البناء، وأن الجندى المصرى الجديد والذى سيحمل السلاح المتطور جندى متعلم ومتطور وكفء. وفى النهاية فإن الاتحاد السوفييتى الدولة العظمى الوحيدة التى هى اليوم على استعداد للوقوف إلى جانبنا والتى ستطلب من حلفائها معاونتنا لأننا نقف ضد عدو مشترك.

الحرب ليست جيشًا يواجه جيشًا وإنما شعبًا يواجه شعبًا، لذلك فإننا سنسعى فى كل الاتجاهات لتجهيز اقتصادنا ليتحمل أعباء حرب طويلة، ولشرح مقتضيات المرحلة القادمة للمواطنين، وإننى أثق أن الشعب الذى خرج يوم ٩ و١٠ يونيو يرفض الهزيمة ويتمسك بأرضه وحقه وكرامته، ولن يبخل بجهده وعمله فى مؤازرة جيشه مادام سيشعر بأنه جيش جديد جاد، مؤمن ومصمم.

دراسة أخطاء الماضى

طلب الرئيس تقارير وافية عن أسباب هزيمة ١٩٦٧ تشرح تفاصيل ما جرى على جبهات القتال من حيث أسلوب التعبئة والحشد والتمركز، وما اتخذ من قرارات عسكرية، وكيفية تنفيذها، وما نتج عنها، وذلك على الجانبين المصرى والإسرائيلى، وقد أعد أساتذة التاريخ العسكرى هذه الدراسة الشاملة، مستعينين بأقوال العائدين من القادة والجنود، وكذا الضباط والجنود الذين أسروا وعادوا

للوطن، وقدموا شرحًا مطولاً وافيًا فى اجتماع حضره الرئيس وقادة الجيش، أعقبته مناقشات مطولة حول الأخطاء والدروس المستفادة.

إعادة بناء الجيش

ولم تكد حرب ١٩٦٧ تضع أوزارها حتى بدأت الجزائر ترسل دفعات من الطائرات المقاتلة وصلت الأربعين طائرة معاونة فى إعادة البناء العسكرى، وكان وزير الخارجية الجزائرى قد زار مصر يوم ٧يونيو، وبيّن قرار الرئيس بومدين فى هذا الشأن.

وفى ٢١ يونيو وصل رئيس الاتحاد السوفيتى ومعه وفد عسكرى كبير وعقد مباحثات بالغة الأهمية وحصل على قوائم بالأسلحة المطلوبة على الفور لتعويض خسائر مصر فى السلاح. وبدأ الجسر الجوى والبحرى بين الاتحاد السوفيتى ومصر فى نقل السلاح والعتاد الذى قدمته موسكو وكان جمال عبد الناصر قد قال لى بعد الهزيمة مباشرة، وكان يتكلم بلهجة مصحوبة بالأمل أن الروس عرضوا عليه تعويض ما فقدناه من أسلحة أثناء الحرب وبدون مقابل.

وفى يوليو ١٩٦٧ سافر الرئيسان هوارى بومدين وعبد السلام عارف إلى موسكو لإجراء مباحثات مع القادة السوفيت بخصوص خطة تسليح القوات المسلحة المصرية.

وفى نفس الوقت تم إعادة تنظيم أجهزة القوات المسلحة، واستمر العمل ليلاً ونهاراً حتى تم إنشاء وتجهيز خط الدفاع الأول غرب القناة فى نوفمبر ١٩٦٧، وهو ذات الشهر الذى صدر فيه قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

وفى ٢٢يناير ١٩٧٠ عقب الغارة الإسرائيلية على أبو زعبل سافر جمال عبدالناصر إلى موسكو وتم الحصول على صواريخ سام/ ٣ كما تمت الموافقة على إشراك الطيارين الروس فى الدفاع عن العمق المصرى.

كما سافر فى يونيو ١٩٧٠ لاستكمال النقص فى الأسلحة.

وسيأتى ذكر ذلك فيما بعد.

وهكذا ومن نقطة الصفر وفى بحر ثلاث سنوات تم إعادة بناء الجيش القادر على إزالة آثار العدوان.

تأثير الأحداث على صحة جمال عبد الناصر

فى هذه الفترة التى تعرض فيها جمال عبد الناصر للانفعالات العنيفة بسبب الهزيمة، ثم بسبب الأحداث التى انتهت بالمشير إلى الانتحار، وتطهير المخابرات العامة وأجهزة الأمن، والتى شهدت كذلك جهداً ضخماً يتمثل فى العمل اليومى المتواصل لمدة ١٨ ساعة متصلة، ازدادت نسبة السكر عند جمال عبد الناصر، ولكن كان البول خالياً من «الأستيون». وقد استدعينا الدكتور «بولسون» من الدنمارك لاستشارته، فلم يزد شيئًا على العلاج وقال: إن ما حدث هو نتيجة للظروف الطارئة والمفاجئة التى واجهها، والتى لا يمكن التحكم فيها، وإن الحالة ستتحسن مع الوقت.

إعادة البناء السياسى

من بعد البدء فى إعادة البناء العسكرى كانت ثانى دوائر اهتمام جمال عبدالناصر هى التوجه إلى البناء السياسى للدولة ومؤسساتها السياسية والتنفيذية.

وقد كان أمام جمال عبد الناصر معادلة صعبة إذ أراد أن يقوم بمهمة إعادة البناء، وهو ممسك بحرص وتوازن بين طرفيها:

«فمن جانب كانت هناك ضرورات التغيير التى تفرضها مراجعة أسباب الهزيمة والإعداد لمرحلة التحرير».

«كما كانت هناك موجبات الاستمرار بمعنى أن التغيير المطلق لم يكن متاحًا فى مرحلة حرب واحتلال للأرض».

«وكان طبيعيًا أن يكون المعيار هو أثر كل تغيير على المعركة المرتقبة لتحرير الأراضى المحتلة».

وتولى جمال عبد الناصر رئاسة مجلس الوزراء، ورئاسة اللجنة التنفيذية العليا

للاتحاد الاشتراكى لكى يضمن وحدة الفكر الاستراتيجى على مستوى الدولة، وأقصى تنسيق بين المؤسسات السياسية والتنفيذية فى إعداد الدولة للحرب.

وفى اجتماعات مجلس الوزراء مثلما فى اجتماعات اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى كان جمال عبد الناصر طوال الشهرين اللذين تليا الهزيمة يوجه المناقشات إلى هدف الوقوف على آراء المسئولين السياسيين والتنفيذيين فى أسلوب التغيير واتجاهاته.

وكانت النقطة المحورية فى تفكير الرئيس هى كيفية تجنب تكرار تجربة مراكز القوى السياسية والعسكرية التى ارتبطت بالمشير، وقادت إلى الكثير مما جرى، وبمعنى آخر كيف يمكن ضمان عدم عودة القوات المسلحة إلى ممارسة دور سياسى من جديد، بعد أن تمت تصفيته فى يونيو ١٩٦٧، وحتى لا يكون كل ما جرى تغييرًا فى القيادات وفى أسماء مراكز القوى.

وكان عبد الناصر هو أول من صاغ تعبير مراكز القوى، وقدم تحليله لما جرى، موضحًا أنهم طبقة من العسكريين والسياسيين أدوا دورهم فى الثورة ولكن كان هدفهم الوحيد هو السلطة وليس الثورة، لأن الثورة بالنسبة لهم أصبحت مغانم فقط، ووصفهم بقوله: «إن هؤلاء السياسيين والعسكريين كان هدفهم الوصول للحكم، فاجتمعوا على مصلحة واحدة، وفى منتصف الطريق وجدوا طريق الانحراف سهلاً فانحرفوا».

وكان جمال عبد الناصر صريحًا فى توجيه النقد الذاتى لتجربة ما قبل ١٩٦٧ موضحًا فى ذات الوقت بأن الناس كانت تعتقد أن كل ما يريده جمال عبد الناصر يتحقق تلقائيًا لأنهم لا يعرفون خلفيات الأمور ودهاليز السياسة، وأنه كان هناك بالفعل مؤشرات لم يكن مرتاحًا إليها فى الممارسة، وكان قبوله للحلول الوسطى حتى لا يدخل البلاد فى صراع على السلطة وحرب أهلية.

التنظيم السياسى

كان جمال عبد الناصر يرى أنه لابد من إقامة تنظيم سياسى يحمى الثورة، وكان يرى أن صيغة الاتحاد الاشتراكى هى أكثر الصيغ ملاءمة لذلك.

فالاتحاد الاشتراكى من وجهة نظر جمال عبد الناصر يمثل تحالف قوى الشعب العاملة صاحبة المصلحة فى الثورة، علاوة على أنه يعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات وتجنب دموية الصراع الطبقى.

ولإيمان عبد الناصر بأهمية وخطورة دور الاتحاد الاشتراكى فى الوصول بمبادئ الثورة إلى أصغر مواقع العمل الجماهيرى، وبناء المواطن الثورى المؤمن بثورة يوليو فكراً وممارسة، وفى إيجاد الرقابة الشعبية على الأجهزة التنفيذية ضماناً لعدم انحرافها؛ فلقد فكر فى منتصف الستينات أن يترك رئاسة الجمهورية، وأن يتفرغ لبناء الاتحاد الاشتراكى ليقيم الكيان السياسى القادر على تأمين مستقبل الثورة، والوقوف فى وجه مراكز القوى السياسية والعسكرية. إلا أن مجلس الأمة - وهو الهيئة البرلمانية للتنظيم السياسى - تمسك بعبد الناصر رئيساً للجمهورية.

وعلى عكس ما كان يأمل جمال عبد الناصر فقد استغل أعضاء الاتحاد الاشتراكى نفوذهم لخدمة مصالحهم الشخصية والتدخل فى شئون الحكم، وأصبحوا هم مراكز القوى المسيطرة على الشعب.

وكان جمال عبد الناصر يعلم ذلك، ولكنه كان مؤمناً بأن المشكلات التى عاناها الاتحاد الاشتراكى لا ترجع إلى قصور أو عيوب فى صيغته ولكن كانت أسباب القصور أو العيوب ترجع إلى التطبيق.

وكان عبد الناصر قد عانى من قصور الاتحاد الاشتراكى فى الممارسة، بل خذله تنظيمه السياسى أكثر من مرة فى المواجهة الصامتة مع المشير عبد الحكيم عامر ومجموعته.

وكانت من نتائج قصور التنظيم السياسى عن الوفاء بدوره الجماهيرى أن استمر الجيش هو المؤسسة الوحيدة القادرة على تأمين الثورة وعلى إحداث التغيير الثورى.

ويذكرنى الحديث عن ممارسات الاتحاد الاشتراكى بموضوع يتصل بجامعة القاهرة عشته من قرب، فقد كان الرئيس يتحدث معى من آن لآخر عن شئون الجامعة بوصفى أستاذاً بكلية الطب جامعة القاهرة.

فى أحد الأيام ذكر لى جمال عبد الناصر أنه علم من ابنته هدى - وكانت طالبة فى

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة - أن الأساتذة يصلون متأخرين عن ميعاد المحاضرة، وأحيانًا لا يحضرون بتاتًا دون اعتذار أو إرسال من ينوب عنهم فى إلقاء المحاضرة، وفى الوقت نفسه كانت ابنته منى - الطالبة بالجامعة الأمريكية - تقول إن الأساتذة مواظبون على دخول المحاضرات فى مواعيدها تمامًا، وأبدى الرئيس عدم رضاه عن الأسلوب الذى يجرى به العمل فى جامعة القاهرة، وقال لى: «إنه سيعين الدكتور عزت سلامة وزيراً للتعليم العالى لتحقيق الانضباط فى الجامعة واحترام الأساتذة لمسئولياتهم». وكان الدكتور عزت سلامة معروفًا فى ذلك الوقت بالشدة والحزم.

وفى الواقع ولو أن اللوم يقع على بعض أعضاء هيئة التدريس لعدم مواظبتهم على الحضور، إلا أن التوسع فى التعليم الجامعى وتزايد عدد الطلبة فى الكليات دون ارتباط بين الأعداد واحتياجات الدولة من الخريجين كان السبب الرئيسى لتدهور التعليم الجامعى فى رأيى. وقد سبق أن تحدثت مع الرئيس فى ذلك مبديًا وجهة نظرى هذه بمناسبة اجتماع لمدير الجامعة بأعضاء هيئة التدريس فى كلية الطب، قال فيه مدير الجامعة إن شعار جامعات الأعداد الكبيرة غير قابل للمناقشة، ولكن عبد الناصر لم يقتنع بوجهة نظرى وقال لى: «وإيه يعنى لما يكون سواق التاكسى معاه ليسانس؟».

وتحدثت مع الرئيس فى كيفية تدعيم ارتباط الأساتذة من الأطباء بالجامعة وإبقائهم فيها أطول فترة ممكنة بإيجاد الوسائل وتهيئة الظروف لفحص مرضاهم فيها، وحكيت عن بعض مشاهداتى فى فرنسا وتجارب الأساتذة فى هذا الخصوص وأعطيت مثلاً بالأستاذ «كارولى» الذى كان له وقت محدد للكشف بأجر على مرضاه الخصوصيين داخل مستشفى الجامعة، وذلك كأسلوب يجعل الأستاذ داخل مبنى المستشفى لأطول عدد من الساعات، ولا يشتته بين المحاضرات والمستشفى والعيادة الخاصة، وحين تحمس الرئيس لهذه الفكرة قلت له: إن هناك موقعًا ممتازاً يصلح لأن يكون مستشفى ملحقًا بالقصر العينى فأبدى موافقته. ولكن حين طلبنا ذلك من الوزير المختص حينئذ اتضح أن المبنى مخصص لفندق ومتبرع به على هذا الأساس (موقع المريديان حاليًا).

بدأ الدكتور عزت سلامة عقب توليه الوزارة مباشرة المهمة التى أوكلت إليه، وركز على كلية الطب بصفتها أكبر كليات جامعة القاهرة، وحدث للأسف أن تدخل الاتحاد الاشتراكى وفرض آراءه على الوزير الذى قام بإصدار قرارات متتابعة لا علاقة لها بالتكليف الصادر من الرئيس عبد الناصر ولا بصالح العمل، وإنما كان الغرض منها إذلال أساتذة الكلية ـ وكان مندوبو الوزير من شباب الاتحاد الاشتراكى يدخلون مكتب العميد دون موعد سابق أو استئذان، ويبلغون قرارات وزارية غير مدروسة للتنفيذ، وكان الدكتور عبد العزيز سامى عميد الكلية دائم الشكوى من هذا الأسلوب.

علاوة على ذلك فقد أشيع من باب التهديد فى ذلك الوقت، أن النية متجهة لوضع عدد غير قليل من الأساتذة تحت الحراسة، وباختصار خرج الدكتور عزت سلامة عن الدور الذى رسمه له جمال عبد الناصر، وهو احترام الأساتذة لمواعيد الدروس والمحاضرات، وتحقيق الانضباط من هيئات التدريس فى أداء واجبهم، وانزلق وراء أعضاء الاتحاد الاشتراكى، وعندما تبين لى ذلك شرحت الأمر للرئيس فى أحد المقابلات، وفى الوقت نفسه حاولت أن أتحين الفرصة المناسبة لترتيب مقابلة بين الرئيس وعميد كلية الطب ليسمع منه تفاصيل ما يجرى.

وتصادف فى ذلك الوقت أن مرض الرئيس بنزلة شعبية وطلبت منه أخذ رأى الدكتور عبد العزيز سامى أستاذ أمراض الصدر وعميد كلية الطب فى مرضه، وبالفعل قام الدكتور عبد العزيز سامى بفحصه، كما قام الدكتور جمال مسعود أستاذ الأشعة ـ ووكيل كلية طب الإسكندرية الذى كان قد سبق له فحص الرئيس بالأشعة ـ بعمل أشعة للصدر.

وبعد الكشف جلسنا فى الصالون لبعض الوقت، وأثناء الحديث التفت الرئيس فجأة إلى الدكتور عبد العزيز سامى قائلاً: «إيه رأيك فى عزت سلامة؟ واعمل حسابك مافيش حد من الاتحاد الاشتراكى قاعد معانا».

فلقد أحس الرئيس أن الغرض من هذا الاجتماع هو إثارة موضوع عزت سلامة، وفعلاً شرح له العميد الموضوع وانتهت المقابلة.

وأثناء الاجتماع حضر السيد زكريا محيى الدين، وكان رئيسًا للوزراء، ولكنه لم

يحضر الاجتماع، وسلم على جمال عبد الناصر وانصرف. عقب ذلك نشر «الأهرام» أن هناك أزمة ثقة بين وزير التعليم العالى وأساتذة الجامعة، وفتح باب المناقشة فى هذا الموضوع . . ومن أسف أن وجدت كثيراً من الأساتذة كتبوا مقالات مديح فى الوزير لجهلهم بأن النشر كان تمهيداً لخروجه من الوزارة.

وأذكر من تعليقات جمال عبد الناصر على أسلوب الاتحاد الاشتراكى فى الممارسة حين كنا جالسين فى شرفة استراحة القناطر، وسمعنا شخصًا يتحدث فى الميكرفون بصوت عال، ولما سألت عن من يكون هذا الشخص رد الرئيس بسرعة : «لازم واحد من بتوع الاتحاد الاشتراكى!» وساد الصمت ولم يعلق أى من الحاضرين.

كما أذكر أن حكيت لجمال عبد الناصر مرة عن فيلم كوميدى شاهدته فى التليفزيون قام ببطولته حسن مصطفى، وتضمن تهكمًا على الاتحاد الاشتراكى، فلم يغضب الرئيس من عرض الفيلم، وإنما قال مبتسمًا بهدوء : «خسارة إننى لم أشاهد هذا الفيلم».

وحينما عرض فيلم «ميرامار» وكان فيه نقداً للاتحاد الاشتراكى أقر باستمرار عرضه.

ودفعت ملاحظات جمال عبد الناصر على الاتحاد الاشتراكى إلى التفكير فى كيفية رفع مستوى أدائه السياسى ليكون الضمان لعدم تكرار ظهور مراكز القوى، وللحشد السياسى من وراء أهداف مرحلة التحرير.

وفى هذا المجال طرح الرئيس فكرة أن يقوم فى داخل الاتحاد الاشتراكى حزبان أو جناحان يتنافسان للوصول إلى السلطة، ويعمل كل منها على إقناع الجماهير بأفضليته فى هذا المجال ويكشف أى قصور فى أداء الحزب الآخر أو الانحراف فى ممارساته. وكانت فكرة الرئيس تقوم على أساس أن الحزبين ينتميان للخطوط العريضة لفكرة ثورة يوليو ١٩٥٢ وإن جاز اختلافهما فى درجات التركيز على سياسات أو توجهات دون أخرى، ولكن السلطة العسكرية برئاسة المشير عبد الحكيم عامر حالت دون قيام ذلك قبل عام ١٩٦٧ ، وبعد ١٩٦٧ كان لأعضاء اللجنة التنفيذية العليا جميعًا رأيًا مخالفًا مفاده عدم مناسبة مرحلة الإعداد للتحرير لتلك التجربة وأنه من الأوفق تأجيلها لما بعد إزالة آثار العدوان.

ومن ناحية أخرى كان الرئيس جمال عبد الناصر قد قرر أن يرأس الوزارة للأسباب التى سبق الإشارة إليها، وكان اختياره للوزارة الجديدة من عناصر شابة، وكثير من الوزراء دخلوا الوزارة لأول مرة للكفاءة المشهود لهم بها فى مجالات تخصصهم، وذلك بعد أن تخلص من نفوذ المؤسسة العسكرية.

وكانت هذه الوزارة هى التى أوكل إليها الرئيس عبد الناصر مهام محددة على طريق التغيير، فلقد أدار معها الحوارات الطويلة حول التغيير وعهد إلى لجنة منها لصياغة بيان ٣٠مارس ١٩٦٨، وكلف أعضاءها بتطوير وتيسير إجراءات العمل واللوائح وخدمة الجماهير داخل وزاراتهم، وطلب من كل وزير أن يتصرف داخل وزارته بمنتهى الحرية والجرأة، ولا يعطى الفرصة للجهاز البيروقراطى داخل وزارته فى السيطرة عليه وشل حركته.

وكان جمال عبد الناصر يعلم أن كثيراً من الوزراء لا يريدون الإدلاء بآرائهم بصراحة، وخصوصًا من دخل الوزارة منهم لأول مرة، حيث كان البعض يميل إلى السكوت أو إلى محاولة التعرف المسبق على اتجاهات الرئيس تجاه موضوع ما، لاعتقاده بأن جمال عبد الناصر لا يحب المناقشة، وعلى الجانب الآخر كان هناك من يكثرون من الكلام لمجرد الكلام، وليس لإبداء الرأى الصحيح، وكان جمال عبد الناصر يضيق صدراً بمثل هذه المناقشات غير الموضوعية.

ولقد كان حسن الاستماع والرغبة فى الوقوف على الرأى الصحيح هو ما لاحظته أثناء مناقشاتى مع جمال عبد الناصر فى شتى الموضوعات.

وأذكر فى هذا المقام ما جرى معى فى موضوع خطير وهو مشروع تطهير الجامعة. وأود أن أستميح القارئ عذراً فى سرده فى هذا المقام لنتبين إلى أى مدى كان الرئيس جمال عبد الناصر يستجيب للمناقشة الحادة برغم انفعاله الشخصى.

وتبدأ وقائع هذا الموضوع معى يوم كنت أوقع فيه الكشف على الرئيس حين سألنى فجأة: «مش شايف أن الوقت دلوقت مناسب لإجراء حركة تطهير فى الجامعة؟ وكان من عادته إذا أراد أن يسألنى سؤالاً مهمًا أن يوجهه خلال انشغالى بالكشف عليه وأن يفاجئنى به. أجبته بقولى: طبعًا».

فاستطرد قائلاً : "إنه كان هناك اجتماع فى كلية الطب برئاسة الدكتور على سرور عميد الكلية، ونوقشت أثناء هذا الاجتماع أحداث يونيو ١٩٦٧ وأسبابها، وانتقد بعض الأساتذة الرئيس، وعلق أحدهم على ما حدث بعد الهزيمة بأبيات شعر من قصيدة كليوباترا لشوقى :

أسمع الشعب ديوان كيف يوحون إليه
أثر البهتان فيه وانطوى الزور عليه

وأكمل عبد الناصر الأبيات فى هدوء ثم قال بعد أن سكت ورنة غضب عميق تفصح ما يجول فى صدره : «أنا ينقال علىّ كده؟! واستطرد أن لديه تفاصيل المناقشات التى جرت وأنه قرر إنهاء خدمة ثلاثة من الأساتذة الذين حضروا الاجتماع وكذا العميد الذى لم يكن حازمًا معهم.

قلت له : أنا لا أدافع عن هؤلاء الأساتذة ولكن ما بدر منهم يعتبر تصرفًا جماعيًا غير مدبر تحت ضغط انفعال مؤقت. أما الذين يدبرون فى الخفاء فهم لا يتكلمون، وهم أولى بالتطهير من غيرهم».

فنظر الرئيس إلى مليًا وسألنى : «من هؤلاء؟» فأجبته : لست أدرى فهم غير معروفين.

وفى اليوم التالى سألته عما ينوى اتخاذه من إجراءات مع هؤلاء الأساتذة، فأجابنى : «لم أقرر بعد»، وشعرت أنه قد أمعن التفكير فى الرأى الذى أبديته بالأمس وأنه صار مقتنعًا به. فاستطردت : «إذا عفوت عنهم فلأن قلبك كبير. وقد سمعنا عن عفوك حتى على من دبروا مؤامرات ضدك».

واقتنع.. ومن بعدها لم تثر من جديد قضية تطهير الجامعة.

منظمات الشباب

وعودة لحديثنا عن إعادة البناء السياسى.. فلقد كان جمال عبد الناصر مهتمًا بالشباب ويرى فيه قوة المستقبل، وكان معتمدًا على منظمات الشباب فى خلق جيل من الشباب مؤمنًا بالثورة ومحافظًا عليها وطالب بإتاحة الفرصة له لتولى المسئولية، وقد قويت منظمات الشباب واستطاعت أن تتغلغل بين الجماهير.

حدث فى فبراير ١٩٦٨ أن صدرت الأحكام العسكرية ضد قادة الطيران الذين تسببوا فى هزيمة ١٩٦٧ ، وكان رد الفعل الشعبى هو عدم الرضا حيث اعتبرها الشعب غير كافية . وتحت ضغط الانفعال المكبوت بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وفى مناسبة الأحكام على بعض المتسببين فيها من العسكريين قام الطلاب بمظاهرات طافت شوارع القاهرة احتجاجًا على تلك الأحكام .

وكنت عند عبد الناصر فى ذلك اليوم ، ووجدته متجهمًا بسبب الأحداث وقال لى : «أنا مقدر انفعالات الناس وخاصة الشباب بعد الهزيمة ، ولكن أنا مش فاهم إيه لزوم المظاهرات؟! وأنا لسه ماصدقتش على الأحكام» . ثم ذكر لى أنه على اتصال دائم بوزير الداخلية السيد شعراوى جمعة ، وأنه أصدر له تعليمات واضحة بعدم التعرض للطلاب بالعنف ، وأن وزير الداخلية قد أفاده بتنفيذ هذه التعليمات ، وبأنه لأول مرة نسمع عن مظاهرة كان فيها عدد المصابين من جنود الشرطة أكثر من عدد المصابين من المتظاهرين .

وكنت أدرك أن هذه هى أول مظاهرة منذ عام ١٩٥٢ لم يكن خروجها تأييدًا لجمال عبد الناصر ، ولكن جمال عبد الناصر لم يتصرف تجاه هذه المظاهرات من منطلق عدم شرعيتها والتصادم معها ، وإنما من منطلق حق الشعب فى توقع التغيير وفى السخط على الهزيمة .

وبعد أيام قليلة انتهت المظاهرات ولكن الأمر لم ينته بالنسبة لجمال عبد الناصر الذى كان يدرس إعادة البناء السياسى ، فقد وضع هذه المظاهرات تحت المجهر السياسى وناقشها مطولاً مع مجلس الوزراء ، وكانت الهتافات التى ترددت خلالها موضع اهتمامه الشديد ، وطالب الوزراء بضرورة الاستجابة لكل ما عبرت عنه هذه الهتافات من شكاوى .

وفى نهاية مارس ١٩٦٨ ، كانت الخطوط العامة لعملية البناء السياسى قد تبلورت من مناقشات الرئيس مع كل من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى ومجلس الوزراء ، وقدم جمال عبد الناصر إلى الأمة بيان ٣٠ مارس يتضمن الخطوط العامة للعمل السياسى فى المرحلة التالية ، وفى مقدمتها إعادة بناء

الاتحاد الاشتراكي بالانتخاب من القاعدة إلى القمة، وهو ما كان عبد الناصر يرى فيه أحد الضمانات ضد الشللية ومراكز القوى، كما كان يأمل مخلصًا في أن يظهر جيل جديد من الشباب من خلال هذه الانتخابات، وإعادة الدولة المصرية مع تركيز على الاهتمام بالعلم، وعلى القيم الروحية والخلقية، وانطلاقة للقوى الخلاقة للحركة النقابية.

وقد أصر جمال عبد الناصر على استفتاء الشعب على بيان ٣٠ مارس، وكانت وجهة نظره أن الاستفتاء ضرورة من ضرورات المعركة؛ لأن المعركة ليست معركة فرد وليست معركة جيش، وإنما هي معركة شعب ومعركة أمة بأسرها.

المحاكمات العلنية

وعلى الجانب الآخر فلقد قصد جمال عبد الناصر أن يشهد الشعب في مرحلة إعادة البناء السياسي المحاكمات السياسية علانية ليعرف الناس حقائق ما كان؛ لتكون عبرة لعدم التكرار. واتخذ عبد الناصر هذا القرار بكل ما يعنيه من تحمل النظام الثوري لتلك الأخطاء ولقدرة هذا النظام أيضًا على علاج أخطائه وتصحيح مساره.

□ الفصل السادس □

عبد الناصر والمسرح السياسى المصرى

كان البعد العربى القومى منذ عام ١٩٥٢ ركنًا أساسيا من أركان فكر وسياسات جمال عبد الناصر الذى كان يرى أنه بقدر تحرير الشعوب العربية سياسيا، وتمكينها من قدراتها الاقتصادية، وبناء المجتمعات العربية القوية؛ بقدر ما يكون ذلك خطوة للأمام نحو المواجهة طويلة المدى بين الوجود العربى والاستعمار الصهيونى.

وكان لابد أن تقود سياسات مصر لتحرير الشعوب العربية سياسيا واقتصاديا إلى مواجهات وصراعات مع الدول ذات النفوذ الاستعمارى فى المنطقة؛ القديم منها والجديد، ومع الأنظمة العربية التى تتعاون مع هذه الدول.

ولكن بعد احتلال إسرائيل للأراضى العربية فى ١٩٦٧ أصبح من الضرورى إجراء بعض التعديلات على تلك الإستراتيجية طويلة المدى؛ فإسرائيل احتلت بالفعل مزيداً من الأرض العربية مستفيدة من عدم الجدية العربية إزاء مطالبة مصر فى مؤتمرات القمة عامى ١٩٦٤ أو ١٩٦٥ سرعة بناء القدرات الدفاعية العربية القادرة على ردع التوسع الإسرائيلى، وتمثلت التعديلات فى محاولة حشد أكبر قدر ممكن من طاقات الدول العربية جميعًا - تقدمية كانت أو محافظة - وراء هدف عاجل هو إزالة آثار العدوان.

وهكذا استمد العمل العربى بعداً رئيسيا فى إستراتيجية جمال عبد الناصر فى مرحلة التحرير باعتبار أن المعركة هى معركة كل العرب ضد إسرائيل، وبها يرتبط مباشرة مصير الصراع العربى الإسرائيلى، ولضرورة أن يستفيد العرب من العمق الإستراتيجى، ومصادر الثروة المتاحة لهم فى مواجهة العمق الإستراتيجى، ومصادر الثروة المتاحة للعدو متمثلة فى الارتباط العضوى بينه وبين الولايات المتحدة وغرب أوروبا.

وكان تفكير جمال عبد الناصر فى هذا المجال يقوم على مستويين :

أولهما : التنسيق والتعاون الوثيق مع دول المواجهة والمقاومة الفلسطينية .

ثانيهما : اشتراك الدول العربية الأخرى بالقوات أو بالدعم لدول المواجهة كل حسب إمكانياته .

ودعا عبد الناصر إلى عقد مؤتمر للقمة العربية لوضع إستراتيجية عربية فى مواجهة العدوان .

ومن قبل انعقاد مؤتمر القمة شهدت أيام ما بعد حرب ١٩٦٧ مواقف عربية كان لها أثرها فى الدعم السياسى والمعنوى لمصر ، وفى المعاونة على سرعة بناء خط الدفاع الأول ، فكانت الجزائر أول من بعث فى ٨ يونيو ١٩٦٧ بطائرات لمصر ، كما اجتمع وزراء الخارجية العرب فى الكويت فى ١٨ يونيو ٦٧ وقرروا الوقوف إلى جانب دول المواجهة العربية .

وحضر الملك حسين لمباحثات مع الرئيس قبل سفره إلى نيويورك لحضور اجتماع طارئ للأمم المتحدة ، وأبلغه الرئيس بأنه ليس أمام مصر سوى القتال لاسترداد الأرض ، وأن الحلول الدبلوماسية ستبحث طوال فترة الاستعداد العسكرى ، وأن موقف أمريكا ميئوس منه مادام ميزان القوى العسكرى لصالح إسرائيل ، والموقف على جبهات القتال لا يشكل تهديداً للمصالح الحيوية الأمريكية ، ولكنه نصح الملك حسين بأن يعمل كل ما يستطيعه لسرعة استرداد الضفة الغربية قبل أن تتمكن إسرائيل من تهويدها ، وأن للأردن فى هذا المجال أن تسعى إن أرادت لدى واشنطن بحكم العلاقات التاريخية بينهما لمعاونتها فى استرداد الضفة إن استطاعت .

وفى أوائل يوليو ١٩٦٧ حضر إلى مصر رؤساء سوريا والعراق والجزائر والسودان والملك حسين بعد عودته من الولايات المتحدة لدعم الصمود العربى ، وبعثوا برئيس العراق والجزائر إلى موسكو لتكثيف الدعم العسكرى لمصر ، والتأييد السياسى للقضية العربية فى الأمم المتحدة من جانب الاتحاد السوفيتى ودول الكتلة الشرقية .

مؤتمر القمة فى الخرطوم

فى أواخر أغسطس ١٩٦٧ سافرت مع الرئيس جمال عبد الناصر إلى الخرطوم لحضور مؤتمر القمة العربى، وكانت هذه هى أول مرة أسافر فيها معه حيث كان يرافقه قبل ذلك الدكتور أحمد ثروت.

ركبنا الطائرة إلى الخرطوم وكان الرئيس بشوشًا، وإن كان يميل إلى الصمت والاستغراق صامتًا فى التفكير لفترات خلال الرحلة، ووصلت طائراتنا فوق مطار الخرطوم فى نفس الوقت الذى وصلت فيه طائرة الملك فيصل، وجاء من يقول للرئيس: «إن برج المراقبة فى مطار الخرطوم يسأل إن كنت تود أن تهبط قبل طائرة الملك فيصل» «فأجاب بعدم مبالاة: أى حاجة».

وهبطت طائرتنا أولاً ونزل الرئيس من الطائرة ليصافح كبار مستقبليه، ولما سأله مدير المراسم إن لم يكن لديه مانع فى أن ينتظر هبوط طائرة الملك فيصل التى كانت بالفعل قد وصلت على بداية الممر ليخرجا من المطار فى سيارة واحدة جاءت إجابة الرئيس فى هذه المرة سريعة وقاطعة: لا. . حاطلع لوحدى» ولم أدرك لذلك سببًا فى تلك اللحظة حتى خرج الموكب من المطار».

فما إن ظهر جمال عبد الناصر فى سيارته خارج المطار حتى انطلق مئات الآلاف من المواطنين السودانيين الذين كانوا فى انتظاره منذ ساعات فى الحر الشديد والرطوبة «الخانقة» يهتفون ملء حناجرهم «ناصر. . ناصر» ويتدافعون نحو سيارته آملين فى مصافحته.

وكان استقبال الشعب السودانى هو المفاجأة الكبرى فى مؤتمر القمة بالخرطوم، حتى الرئيس الذى اعتاد على الاستقبالات التى تفيض بالمشاعر نحوه فى مصر، وسوريا، وتونس، والجزائر، وكل دولة عربية زارها؛ لم يكن يتوقع هذا الحماس فى مرحلة لم يزل يخيم عليها شبح هزيمة ١٩٦٧ ولم تغب الدلالات السياسية المهمة لهذا الاستقبال الكبير عن عين المراسلين الأجانب، وفى الأسبوع التالى صدرت مجلة «تايم» الأمريكية - واسعة الانتشار فى العالم - بصورة لعبد الناصر على غلافها - برغم الهزيمة - وكتبت تحتها «الخرطوم تخرج تحية للبطل المهزوم».

عندئذ أدركت لماذا أراد الرئيس الخروج من المطار وحده فقد كان يدرك أن حجم استقبال المواطنين العرب فى السودان لرئيس مصر كان له مغزاه السياسى المهم أمام صناع القرار فى إسرائيل وفى الغرب.

وفى نفس الوقت حدث لدى خروجى من المطار أن انضمت السيارة التى أستقلها بالخطأ وبتأثير الزحام إلى موكب الملك فيصل الذى كان يأتى خلف موكب الرئيس، وكان المواطنون يخبطون بأيديهم على سيارة الملك فيصل هاتفين: «بترول العرب للعرب» فى إشارة واضحة إلى ضرورة تأميم البترول.

كان عبد الناصر ضد فكرة تأميم البترول للنتائج المتوقعة لهذا الإجراء فى هذا الوقت، وكان يرى أن تستخدم حصيلته فى دعم المعركة ضد إسرائيل لإزالة آثار العدوان.

كان المؤتمر ناجحًا إلى أقصى درجة، وكان إجماع الدول العربية على أن تتقدم دول البترول (السعودية والكويت وليبيا) بدعم لدول المواجهة، وصدرت عن المؤتمر قراراته السياسية المعروفة بألا صلح ولا اعتراف ولا تفاوض مع إسرائيل، والتمسك الكامل بحقوق الشعب الفلسطينى، وبذلك أعلن العرب عن صمودهم ورفضهم للاستسلام، كما تمت تسوية مشكلة اليمن على أساس عدم تدخل السعودية فيها وعودة القوات المصرية.

وحدث خلال وجودنا فى الخرطوم أن علم الرئيس بمرض السيد الحسيب النسيب الميرغنى فأرسلنى للكشف عليه حيث وجدته مريضًا بهبوط فى القلب، ولكنه كان هادئًا رابط الجأش، وقد كانت تلك اللفتة من الرئيس موضع التقدير من السيد الميرغنى.

وفى طريق عودتنا إلى القاهرة بحث الرئيس مع وزير الاقتصاد فى ذلك الوقت السيد/ حسين عباس زكى الموقف الاقتصادى فى ضوء الدعم الذى التزمت به الدول العربية، وقال ضاحكًا: «صحيح السعودية قدمت الدعم لنا ولدول المواجهة، ولكن هما حاسبينها.. لأنهم حيوفروا المبالغ اللى حيصرفوها لو استمرت حرب اليمن». ثم التفت إلىّ مستطردًا: «قالوا لى حنخلص حرب اليمن بأربعة آلاف جندى فى ثلاثة شهور، ودلوقت وصلنا لسبعين ألفًا وبنحارب خمس سنين».

وكانت هذه أول إشارة من عبد الناصر أمامى لحرب اليمن.

ثورة ليبيا

بعد نجاح ثورة ليبيا فى أول سبتمبر ١٩٦٩ كنت فى زيارة لجمال عبد الناصر وكان سعيداً بأبناء الثورة إلى أقصى حد، وحين دخلت الحجرة قال لى : «شوف حيهوهووا فين!» ثم سألنى هل تعرف هذه النكتة؟ فأجبت نعم، ولاحظت أننى تسرعت فى الإجابة فقد كان يريد أن يحكيها.

وكانت النكتة السياسية تروى أن كلبًا سمينًا هرب من مصر إلى ليبيا وهناك وجد كلابًا نحافًا سألوه : إيه اللى جابك؟!.. ده احنا مش لاقيين ناكل؟!.. فقال: أنا جاى أهوهو!.

وكانت هذه النكتة تشير إلى أن الحرية فوق أى اعتبار، وكان تعليق جمال عبد الناصر عليها يشير إلى أن ثورة ليبيا أضافت عمقًا لثورة ٢٣ يوليو.

كان جمال عبد الناصر يعرف كل النكات التى تروى عن النظام أو عنه - بحق أو بغير حق - وكان يضحك عليها، ما عدا حملة النكات التى تعرضت لها القوات المسلحة بعد الهزيمة وأحزنته كثيراً كما سبق وأشرت.

وعلمت من الرئيس فيما بعد أنه حين وصله أول خبر عن قيام الثورة استطلع معلومات المخابرات المصرية، ورأيها عن الثورة والقائمين بها ليدرس موقف مصر من الاعتراف بها، فأجابوه بأن نجاحها يبدو غير مضمون، وكان ذلك رأى المخابرات الروسية أيضًا، وبالرغم من ذلك قرر الاعتراف بها ومساندتها.

ولقد كان لقيام ثورة ليبيا - وكذا ثورة السودان فى ذات العام - أثر كبير على رفع معنويات جمال عبد الناصر، فكل شبر يتحرر من الأرض العربية كسب لمعركة التحرير التى تقودها مصر، كما أن للبلدين حدوداً مشتركة معنا، وقيام أنظمة ثورية فيها يعنى إضافة عمق إستراتيجى كبير لمصر غربًا وجنوبًا فى المواجهة مع إسرائيل، فضلاً على أن تصفية القواعد الأمريكية والبريطانية فى ليبيا أمن مصر من خطر استخدام هذه القواعد ضدها، ثم يبقى بعد ذلك كله بالنسبة لجمال عبد الناصر أنه رأى بعينه برغم هزيمة ١٩٦٧، وبينما هو فى خضم التجهيز لمعركة إزالة آثار العدوان، شباب عربى مؤمن بثورة يوليو الأم بقيادة جمال عبد الناصر يتقدم لأداء واجبه فى تحرير وطنه، وتطهيره من القواعد الأجنبية.

مؤتمر القمة العربى فى الرباط

فى أواخر ديسمبر ١٩٦٩ سافرت مع جمال عبد الناصر إلى الرباط لحضور مؤتمر القمة العربى هناك، ونزلنا فى أحد قصور الضيافة، وكان جو الرباط باردًا بالرغم من أن الشمس كانت ساطعة.

وتوالى وصول الوفود وكان كل شيء على السطح يبدو موحيًا بمؤتمر ناجح.

وكان دافع عبد الناصر من الدعوة إلى المؤتمر هو ما لاحظه من أن بعض الدول العربية قد عادت إلى الأساليب الدعائية القديمة من هجوم متبادل، برغم جو المصالحة الذى تم فى الخرطوم، وكان تقدير الرئيس أن هذا التغيير يعكس محاولات للتنصل من المشاركة فى المعركة، فدعا إلى عقد المؤتمر وجعل محور مناقشاته حشد الطاقات العربية للمعركة بالمال أو السلاح أو القوات، وكان هدف عبد الناصر هو وضع جميع الدول أمام مسئولياتها لكشف الجادين من غير الجادين ووضع حد للمزايدات.

وعرضت على المؤتمر خطة العمل الموحدة توضح الحد الأدنى المطلوب من القوات على الجبهتين السورية والمصرية، ولكن المقترحات تعددت والمناقشات طالت سواء بالنسبة للدعم المادى أو العسكرى، فخرج عبد الناصر من المؤتمر حين شعر بعدم الجدية وإثر خروجه أعلن الملك الحسن فشل المؤتمر فى التوصل إلى قرارات.

وبهذه النهاية لقمة الرباط أصبحت فكرة الحشد العربى بعيدة عن التحقق وصار لزامًا التركيز على التنسيق مع الجبهة الشرقية (سوريا والأردن).

ولم تمنع مشغوليات عبد الناصر طوال فترة الإقامة فى الرباط ما بين حضور جلسات المؤتمر ولقاءاته الثنائية بالقادة العرب، من أن يفكر فى ترتيب رحلة لى لزيارة الدار البيضاء.

وعقب انتهاء المؤتمر وسفر الوفود استضاف الملك الحسن الرئيس عبد الناصر يومًا للاستجمام فى القصر الملكى بالرباط حيث الكرم المغربى بعد أيام من الجدل والمناقشات فى المؤتمر.

بعد ذلك ركبنا الطائرة إلى طرابلس حيث كان من المقرر أن يقوم الرئيس بزيارة ليبيا ، وفى الطريق هبطنا فى مطار الجزائر لمدة ساعتين اجتمع الرئيس خلالهما بالرئيس هوارى بومدين ولم يكن اللقاء وديا ؛ حيث كان الرئيس شديداً معه بعد مواقفه المعارضة للموقف المصرى فى مؤتمر الرباط .

زيارة ليبيا

وصل جمال عبد الناصر إلى ليبيا فى أول زيارة لها بعد نجاح الثورة!

وأعترف بأننى لم أر فى حياتى استقبالاً لبشر مثلما استقبل الشعب الليبى جمال عبد الناصر .

فما أن فتح باب الطائرة إثر هبوطها فى مطار طرابلس وظهر جمال عبد الناصر على رأس السلم حتى انطلق الهتاف باسمه يصم الآذان .

وحين خرجنا إلى الطريق خيل لى أنه لم يبق ليبى فى منزله .

كانت الجماهير بمئات الآلاف تهتف باسم عبد الناصر ، وكانت الذبائح تنحر أمام سيارته طوال الموكب .

وبالرغم من أن المسافة من المطار إلى قصر الضيافة لا تتعدى ثلث الساعة فلقد قطعها موكب عبد الناصر فى ثلاث ساعات ، وظل الرئيس واقفًا طوال الوقت يحيى بيديه ويلوح بذارعيه ويصافح الأيدى الممدودة له ، وقلقى على الجهد الذى يبذله بغير حدود .

وكان قصر الضيافة قد شيد من قبل الثورة لولى العهد ، وقامت الثورة قبل أن يدخله ، وقد أقام جمال عبد الناصر فى هذا القصر خلال فترة وجوده فى طرابلس ، حيث كان يجتمع بأعضاء مجلس قيادة الثورة الليبى .

وكانت تلك هى ثانى مرة يتقابل فيها الرئيس والقذافى . فقد كانت المرة الأولى فور قيام الثورة حين حضر القذافى مع اثنين من أعضاء مجلس الثورة الجديد إلى مصر فى زيارة سرية اجتمع خلالها بعبد الناصر ، وطلب أن يتعرف على أبنائه .

وفى اليوم التـالى توجه الرئيس إلى سرادق كـبير أقيم بمناسبـة هذه الزيارة وقد امتلأ عن آخره بالجماهير التى حضرت لسماع خطاب عبد الناصر التاريخى فى ذلك اليوم، وفى هذا الخطاب حيا الرئيس شعب ليبيا وشكر المواطنين على استقبالهم وكرم ضيافتهم، كما حيا رجال الثورة وأوصاهم بالتضامن وعدم الفرقة.

كان عبد الناصر منشرحًا فى هذا اليوم، وارتجل الخطاب الذى ألقاه، ولم يقرأ ما كان مكتوبًا أمامه. وكنت قد اتفقت معه على ألا يزيد خطابه عن ثلث الساعة، وبالفعل نفذ الاتفاق فى هذه المرة.

أقمنا فى طرابلس ثلاثة أيام كنا خلالها محل حفاوة منقطعة النظير، وكان الرئيس فى اجتماعات مستمرة مع قادة الثورة الليبية، وبعدها توجهنا إلى بنغازى.

وفوق مطار بنغازى تعطل جهاز إنزال العجلات، ولاحظنا ارتباك المضيفين، وظلت الطائرة تحوم فوق المطار لمدة نصف ساعة تقريبًا حتى تمكن الكابتن سعد الصيرفى كبير المهندسين من إصلاح العطل بعد أن شمر عن ساعديه، ونزل إلى غرفة العجلات، وقد انتابنى شىء من الخوف، ولكنى لاحظت أن أحدًا لم يشاركنى هذا الشعور.

وفى اليوم التالى كنت أتناول الإفطار مع الرئيس ومحمد حسنين هيكل، فقال له هيكل الذى كان يجلس فى الطائرة بجوارى: «إن الدكتور منصور كان خائفًا بالأمس». فأجبت: «والله لا أنكر هذا.. وكنت مصممًا ساعتها أننا إذا نزلنا بسلام فلن أركب الطائرة ثانية حتى لو اضطررت أن أعود إلى مصر على قدمى».

وضحك الرئيس وقال لى: «إنك تذكرنى حين كنت فى الطائرة ذات مرة مع إمام اليمن وكانت هناك صعوبة فى الهبوط بسبب الأحوال الجوية، ونظرت إلى الإمام فوجدت ألوانه تتغير، فلما نزلنا سألنى لماذا لم تخف؟ فأجبته إنك ستستريح إذا اقتنعت بأن هذا قدر وأن المكتوب لابد وأن تراه وأن لكل أجل كتاب».

وفى المطار استقبلنا الخروبى، وكان محافظًا لبنغازى التى استقبلتنا جماهيرها وكأنها تنافس جماهير طرابلس فى حرارة الاستقبال، ونزلنا فى قصر الضيافة.

كان المفروض أن نقيم يومين فى بنغازى ولكن طلب الخروبى من الرئيس أن تمتد الزيارة يومًا ثالثًا أسوة بالمدة التى أقامها فى طرابلس.

وأخبرنى الرئيس بذلك وطلب منى أن أجد سببًا أعتذر به عن مد الزيارة، وفعلاً قلت للخروبى إن الرئيس مرهق، وإننى بوصفى طبيبه أرفض مد الزيارة ليوم آخر، ولكن إزاء تصميم الخروبى لم يملك عبد الناصر إلا الموافقة على البقاء ليوم إضافى عدنا بعده إلى القاهرة.

ولقد رفعت زيارة ليبيا من روح عبد الناصر المعنوية إلى أبعد حد، وبالرغم من الجهد الجسمانى الذى تحمله فى الاستقبالات والاجتماعات الطويلة، فلقد كان لهذه الزيارة أثر كبير فى تقدم صحته.

وفى القاهرة أشرت على عبد الناصر بضرورة الاستجمام لبضعة أيام بعد الجهد الذى عاناه فى المغرب وليبيا، وكان مقرراً أن يزور مصر فى ذلك الوقت أحد الرؤساء الأفريقيين، وقال لى عبد الناصر: بأنه سيستقبله فى المطار، ولكننى لم أوافق؛ فكانت النتيجة أن تأجلت الزيارة، فقد كان عبد الناصر حريصًا على أن يكون فى المطار بنفسه ليستقبل ضيوف مصر من رؤساء الدول.

المصالحة بين الأردن والمقاومة الفلسطينية

فى أواخر سبتمبر ١٩٧٠ تفجرت المعارك بين المقاومة الفلسطينية، وقوات الجيش الأردنى. وبغض النظر عن الأسباب التراكمية المباشرة لهذه المواجهة فلقد كان أثرها الإستراتيجى على مصر بالغ الخطورة، حيث وقعت بين طرفين مشاركين فى الجبهة الشرقية ضد إسرائيل، وهى الجبهة التى يفترض أن تساند مصر عند بدء معارك التحرير.

وعلى الفور دعا جمال عبد الناصر إلى انعقاد مؤتمر قمة عاجل بفندق «الهيلتون» بالقاهرة وطوال الأيام التى دامها المؤتمر كان عبد الناصر فى اجتماعات مستمرة ليلاً ونهاراً سواء فى صورة كاملة لهيئة المؤتمر أو اجتماعات ثنائية، فلقد كانت المعارك والمذابح الضاربة فى تصاعد يهدد بنسف كيان الجبهة الشرقية، وكان كل من الطرفين يلقى بالتبعات على الآخر، وكانت أنظار العالم كله على ما يجرى فى القاهرة من أثر ما كان يجرى فى الأردن، وفى يوم أن وقع الاتفاق بين المقاومة والحكومة

الأردنية نشرت جميع صحف العالم شرقه وغربه صورة الملك حسين والسيد ياسر عرفات يتصافحان وقد وقف الرئيس عبد الناصر بينهما وكتبت تحتها : «إنجاز لا يحققه إلا ناصر».

ولكن الجهد الجسماني والعصبي الذي بذله عبد الناصر لينقذ الجبهة الشرقية كان أكبر مما يحتمله قلبه.

بدء آلام الساق والسفر إلى ساخلطوبو

مع الجهد الخارق الذى كان جمال عبد الناصر يبذله ما بين القوات المسلحة، والتنظيم السياسى، ومجلس الوزراء، واللقاءات الجماهيرية، ورؤساء الدول الذين توافدوا على مصر للاطمئنان على أوضاعها، بدأ الرئيس فى أوائل عام ١٩٦٨ يشكو من آلام فى الساق اليمنى نتيجة لضعف فى الدورة الدموية، وهى إحدى المضاعفات المعروفة للسكر. واستشرنا فى هذه الحالة الدكتور «بولسون» من الدانمارك والدكتور «فيفر» من ألمانيا الغربية، واتفقنا على العلاج ووضع الرئيس تحت إشراف طبى دقيق، كما طلبنا منه الإقلاع عن التدخين.

لم تكن هذه الآلام تعيقه عن الحركة أو النشاط، ولكنى كنت مهتمًا بها لكونها ناتجة عن قصور فى الدورة الدموية للساق بسبب تصلب الشرايين.

وحدث أن علم سفيرنا فى فيينا فى ذلك الوقت بأن الرئيس يشكو آلامًا فى الساق فتطوع وأبلغه بوجود طبيب عالمى فى فيينا عالج الملك سعود من آلام ساقيه بعد أن كان عاجزًا عن المشى.

وحين يمرض زعيم مثل جمال عبد الناصر يكثر المتطوعون للإدلاء بمعلومات عن طبيب نجح فى علاج آخرين كانوا يشكون من المرض ذاته، أو لوصف دواء ثبت نجاحه فى علاج مرضه، وذلك حرصًا منهم على صحته، وقد يكون أحيانًا من باب التقرب منه والتودد إليه.

وقد حدث نفس الشيء عندما مرضت السيدة أم كلثوم، فبالرغم من عرضها على جميع أخصائى الكلى فى العالم كان أصدقاؤها من العالم العربى يزورونها وبصحبتهم أطباء لفحصها والإدلاء بما يرونه من علاج، وكان بعضهم دون المستوى مما كان يسبب لى الكثير من المضايقات فى أثناء إشرافى على علاجها.

أخبرنى الرئيس عن ذلك الطبيب وقلت لا مانع من استشارته، وفعلاً حضر إلى القاهرة، وقام بفحص الرئيس، ونسب آلام الساق إلى التهاب فى الأعصاب، ولما أطلعناه على نظام العلاج لم يضف إليه جديداً.

وتصادف أن كان يزور القاهرة فى ذلك الوقت أستاذ من النرويج من أكبر الأخصائيين فى التهاب الأعصاب فى العالم، فاتصلت به وطلبت منه أن يفحص الرئيس، وبعد فحصه اتفق فى الرأى معنا، ونفى وجود أى علاقة بين هذه الآلام والتهاب الأعصاب، وقرر أن الآلام سببها ضعف فى الدورة الدموية فى الساق، واقتنع الرئيس خاصة وأن الطبيب النمساوى لم يكن قد أضاف جديداً إلى العلاج.

ثم عادت فكرة العلاج الذى خضع له الملك سعود فى فيينا ونوعيته تراود الرئيس، وطلب منى السفر إلى فيينا لاستيضاح الأمر.

وفى فيينا دعانى السفير على العشاء مع الطبيب الذى ظل يتحدث عن نفسه وعن أبحاثه طول الوقت، موجهًا حديثه إلى السفير الذى كان فاغراً فاه من الانبهار! . .

توجهت بعد ذلك لزيارة هذا الطبيب فى المستشفى، وقمت بفحص بعض المرضى معه، ولاحظت أن مستواه الطبى بالكاد فوق المتوسط، ولم أجد جديداً يفيد فى علاج الرئيس فعدت إلى القاهرة.

وفى الوقت نفسه كان السوفييت قد أشاروا على الرئيس بالاستشفاء فى سخالطوبو المشهورة بمياهها المعدنية، ورغم عدم اقتناعى بفائدة العلاج هناك وجدت فى هذه المرحلة فرصة ليبتعد جمال عبد الناصر عن الانفعالات والمشاكل، وفعلاً سافر الرئيس إلى هناك حيث أمضى بعض الوقت، وعاد إلى القاهرة دون أن يطرأ أى تحسن فى آلام الساق.

□ الفصل الثامن □

الأزمة القلبية الأولى

جاء شهر سبتمبر ١٩٦٩ مثل الشهور التى سبقته منذ حرب ١٩٦٧ مليئًا بالجهد المضنى الذى كان جمال عبد الناصر يبذله فى المجالات العسكرية والسياسية فى الداخل والخارج، وما يتعرض له خلال هذا الجهد من انفعالات خاصة نتيجة متابعته اليومية الدقيقة لكل ما كان يجرى من عمليات مسلحة خلال حرب الاستنزاف على النحو الذى سيلى.

ففى أول سبتمبر شهدت مصر أول اجتماع قمة مصغر لدول المواجهة بين الرئيس عبد الناصر والملك حسين والرئيس السورى نور الدين الأتاسى ونائب الرئيس العراقى مهدى عماش لبحث التنسيق والتعاون بين دول تلك الجبهة.

وفى ذات الفترة كانت الثورة الليبية وتتبع الرئيس لكل ما أحاط بهذا الحدث من ردود الفعل فى العالم.

وفى ٩ سبتمبر كان الرئيس مع وزير الحربية ورئيس الأركان ورؤساء الهيئات فى القيادة العامة يتابعون أداء فرقة مدرعة حديثة الإنشاء.

وحدث فى ذلك اليوم أن أغارت إسرائيل على منطقة الزعفرانة، وهاجمت نقطة خفر السواحل، وقتلت خمس جنود وبعض المدنيين كما سيأتى ذكره فيما بعد.

وكان تأثر عبد الناصر بهذا الحادث بالغًا، وخاصة بالنظر إلى ضحايا الحادث، وقد قال لى فى صباح اليوم التالى وصوته يقطر ألمًا: «المدنين ذنبهم إيه؟ ورجال خفر السواحل دول ناس فوق الخمسين، والمحارب الشريف لا يقوم بعمل بهذه الخسة».

عقب ذلك مباشرة وفى ليل ذات اليوم (١٠/ ٩/ ٦٩) أصيب جمال عبد الناصر بالأزمة القلبية الأولى، وأثبت الفحص الإكلينيكى ورسومات القلب المتكررة حدوث جلطة بالشريان التاجى للقلب، اتصلنا بالدكتور ناصح أمين لعمل التحاليل اللازمة التى أكدت حدوث الجلطة وقمنا بالعلاج اللازم.

فى البداية قلت له: إن هناك تقلصات فى الشرايين نتيجة الإرهاق الشديد، وأنه يحتاج للراحة، وكان أول سؤال له هو: «يعنى إيه راحة»؟ «قد إيه يعنى»؟ فأجبته «مش لمدة طويلة وكل شىء سينتهى بأمان بإذن الله». وفهم عبد الناصر أن قلبه قد أصيب.

وحين طلبت منه إشراك أحد أساتذة القلب بجامعة القاهرة، معنا رفض بطريقة قاطعة، وقال: «مش لازم أى حد يعرف أنى مريض بالقلب.. أنا داخل على فترة مهمة السنة الجاية فى المواجهة مع إسرائيل».

فلما اقترحت عليه إشراك الأستاذ الدكتور محمود صلاح الدين من الإسكندرية، وهو إخصائى فى القلب وافق على أساس أنه كان كثير التردد عليه ومضمون كتمانه لطبيعة مرض الرئيس.

وفيما بعد وافق عبد الناصر على إشراك الدكتور زكى الرملى أستاذ أمراض القلب بجامعة القاهرة معنا فى العلاج.

وعاد عبد الناصر ليؤكد علينا عدم إذاعة حقيقة مرضه. وبالفعل نشرت جريدة الأهرام أن الرئيس قد اعتكف لبضعة أيام لإصابته بالأنفلونزا، ويشرف على علاجه الدكتور منصور فايز والدكتور الصاوى حبيب، وأضيف اسم الدكتور على المفتى - وهو طبيب الرئيس للأنف والأذن والحنجرة - لتأكيد ذلك.

وخلال هذه الأزمة كنت أزور الرئيس مرتين يوميا، وكان الدكتور محمود صلاح الدين يزوره صباح كل يوم.

وطلبت منه أن نستشير أحد أخصائى أمراض القلب فى الولايات المتحدة أو بريطانيا، ولكنه رفض من جديد خشية أن يعرف الإسرائيليون أنه مريض بالقلب، ولكنه وافق على حضور الدكتور «شيزوف» وهو أكبر أخصائيى القلب فى الاتحاد

السوفييتى، وكان عضواً فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى، وأرجح أن الدكتور «شيزوف » قد أعلم القادة السوفييت لدى عودته بطبيعة مرض الرئيس.

واستجاب الرئيس لطلبنا منه بالتزام الراحة لفترة امتدت لمدة شهرين، واتفقنا على ألا يزاول أى عمل خلال هذه المدة، وإن كان دائم السؤال عن سبب إصرارنا على الراحة رغم أننا أخبرناه بوجود جلطة فى الشريان التاجى.

وكان جمال عبد الناصر يروح عن نفسه خلال هذه الفترة بمشاهدة برامج التليفزيون، قد لاحظنا تحسنًا كبيراً فى برامج التليفزيون فى أثناء هذه الفترة وسرعان ما رجع الحال إلى ما كان عليه حين عاد الرئيس إلى نشاطه! .

كانت الزيارة ممنوعة فى أثناء فترة الراحة، وبدأ الكثيرون ينتابهم الشك فى طبيعة مرض الرئيس، فقد كانت الإجراءات التى اتخذت لا تشير إلى أنه كان مريضًا بالأنفلونزا مثل طول فترة الراحة وتركيب مصعد فى منزل الرئيس خلال مدة الراحة. وبدأ بعض المسئولين الذين أقابلهم يسألنى إن كان الرئيس يتناول الهيبارين (وهو دواء يعطى فى علاج الجلطة) فى محاولة منهم للوصول إلى طبيعة مرضه. وعندما طالت مدة اعتكاف الرئيس عرف أنه مريض بالقلب بالرغم من التكتم الشديد.

وحدث أن حضر بهجت التلهونى إلى القاهرة فى ذلك الوقت، وأصر على عدم السفر إلا إذا قابل الرئيس، وبالفعل قابله الرئيس فى حجرة النوم مرتديًا الروب فوق البيجامة، وبالرغم من أن جمال عبد الناصر كان يبدو طبيعيا أمامه فقد أشيع خبر مرضه بالقلب فى الخارج.

وحين مرض الرئيس كان من بين الترتيبات التى طلبناها كفريق طبى يشرف على علاجه أن تتولى كريمته السيدة هدى عبد الناصر العمل كسكرتيرة له فى مكتبه الملحق بغرفة نومه. وكانت قبل ذلك تعمل مسئولة عن متابعة جلسات مجلس الوزراء.

وقد أوصيناها بمحاولة تقليل الكميات الهائلة من الأوراق التى تتدفق على الرئيس طوال النهار للاطلاع عليها، وأن تراعى قدر الإمكان أهمية أن تجنبه

الانفعالات، وبالفعل قامت السيدة هدى بعملها إلى جانب الرئيس حتى رحيله، وكانت تطلع على كل ما يرد للرئيس وتعرض عليه ما له أهمية وأولوية، وتجهز حصراً كاملاً بما عدا ذلك وتخبره بما ورد له ولم يعرض ليطلب الاطلاع عليه أو يطلب موجزاً عنه.

وعقب شفاء الرئيس، وانتهاء فترة الراحة مباشرة كان عليه أن يلقى خطابًا فى مجلس الأمة، وطلبت منه أن يكون الخطاب مختصراً وأن يكون جالسًا خلال حديثه، ولكنى فوجئت بأن الخطاب كان أطول مما اتفقنا عليه. كما أنه ألقاه واقفًا حيث كان يخشى أن يؤخذ جلوسه شاهدًا على أنه لم يزل مريضًا، وفى هذا الخطاب أعلن استعداده لحضور مؤتمر قمة عربى للتشاور فى الأوضاع الراهنة.

وفعلاً تم عقد هذا المؤتمر فى الرباط فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٦٩ كما سبق أن أوردنا.

كان الخيار العسكرى هو البديل الوحيد المتاح لمصر لتحرير أرضها المحتلة عام ١٩٦٧ كما سبق أن أوضحت، فقد انتهت هذه الحرب باحتلال إسرائيلى سريع لأراضى ثلاث دول عربية فى ظروف عسكرية ظالمة للجندى المصرى، كان لها نتائج نفسية كبيرة على العدو، متمثلاً فى أمريكا وإسرائيل، وبدأت إسرائيل تتصرف بغرور وصلف لا حد لهما، وتصورت أن مصر قد انتهت وأنها ستطرق بابها بين لحظة وأخرى، إذ لا أمل أمامها فى بناء قدراتها العسكرية قبل عشر سنوات على الأقل، كما سبق وصرح بذلك «موشى ديان».

وكانت شروط أمريكا وإسرائيل هى أن يسقط نظام عبد الناصر، وأن توقع مصر معاهدة للصلح تقبل بها إقرار «السلام الإسرائيلى» أى السلام بالشروط الإسرائيلية، وفى اختصار شديد كان المطلوب أن تستسلم مصر بغير قيد ولا شرط.

وكان الخيار العسكرى هو البديل الوحيد أمام شعب مصر الذى رفض الهزيمة، وخرجت ملايينه تتمسك بجمال عبد الناصر وتمنحه ثقتها لإعادة البناء واسترداد الأرض المحتلة.

وكان تعبير الرئيس عبد الناصر عن ذلك بعد ٢٤ ساعة من قبوله تكليف الشعب له بمواصلة النضال، قوله فى ١١ يونيو ١٩٦٧ لوزير الحربية الجديد - الفريق محمد فوزى - «ما أخذ بالقوة لن يسترد بغير القوة»، وأنه يجب إعادة بناء القوات المسلحة وإعداد الدولة للحرب لبدء معركة التحرير فى وقت لا يطول عن ثلاث سنوات، ثم تأكيده لذلك خلال اجتماعاته بالقادة الجدد للقوات المسلحة.

وبناءً على هذا التصور بدأ العمل العسكرى المصرى المكثف لبناء الجيش الحديث

القوى والقادر لتتسلح به الإرادة السياسية المصممة على استعادة التراب الوطنى والحق العربى والفلسطينى .

وكان الإنجاز العسكرى الذى حققه جمال عبد الناصر منذ إعادة البناء فى ١١ يونيو ١٩٦٧ ، ومنذ إعداد وتجهيز خط الدفاع الأول عن مصر غرب القناة فى نوفمبر ١٩٦٧ ، معجزة من حيث الحجم، ومن حيث النوع ، ومن حيث الزمن القياسى الذى تم فيه، وما كانت تلك المعجزة لتتحقق بهذا الحجم إلا بفضل القدرات العالية لجمال عبد الناصر ، وثقله السياسى دوليًا، ثم بفضل الإصرار العنيد الذى كان عبد الناصر يتميز به ، والجهد الخارق الذى بذله فى الوصول إلى هدفه .

وكانت حرب الاستنزاف التى أدارها عبد الناصر على مدى ثلاث سنوات ملحمة بطولة له ولشعب مصر ، غنية بالدروس، ثرية بالعطاء والفداء . وستظل مكانتها باقية وخالدة فى التاريخ السياسى والعسكرى لمصر .

وبرغم أن هذه الحرب كانت أول الحروب التى تهزم فيها إسرائيل - بشهادة مؤرخيهم - فإنها لم تأخذ حقها فى النشر كما لم تشر إليها وسائل الإعلام بما تستحقه .

واستمرت حرب الاستنزاف هذه إلى أن قبل جمال عبد الناصر مبادرة روجرز التى كانت تنص على وقف إطلاق النار مؤقتًا بيننا وبين إسرائيل . كما سيأتى ذكره فيما بعد .

أراد عبد الناصر بحرب الاستنزاف أن يعبر سريعًا وبالسلاح عن الرفض السياسى لشروط الاستسلام الإسرائيلى، وعن التصميم على استعادة الأرض وإزالة آثار العدوان، ولا يسمح للأوضاع الناجمة عن حرب ١٩٦٧ أن تستقر فيترتب عليها آثار سياسية وقانونية بغير حدود على حساب الحقوق الوطنية .

كما أن عبد الناصر أراد من خلال حرب الاستنزاف أن يبنى الجيش القوى القادر على تحقيق هذا الهدف الوطنى القومى فى هذه المرحلة، وكانت أول خطواته على طريق هذا البناء هى تحديد موقع القوات المسلحة وإطارها الصحيح فى داخل

الدولة، وإنشاء الأجهزة التى تتولى التفكير والتخطيط العسكرى وتشرف على التنفيذ.

وحدة الفكر السياسى والعسكرى

اهتم الرئيس عبد الناصر بوحدة الفكر السياسى والعسكرى على مستوى السياسة العليا التى يضعها بوصفه رئيساً للجمهورية وقائداً أعلى للقوات المسلحة فى الوقت ذاته، وبأن يكون ما يتفرع عنها من إستراتيجية سياسية تنفذها وزارة الخارجية، وإستراتيجية عسكرية ينفذها وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة تسير فى تناسق كامل مع أهداف السياسة العليا دون تناقض، ومن هنا صار للرئيس جمال عبد الناصر - ولأول مرة - سلطات فعلية مارسها كقائد أعلى للقوات المسلحة.

وكان التناقض بين أهداف السياسة العليا والإستراتيجية العسكرية أحد المداخل لهزيمة ١٩٦٧ بسبب حرص المشير عبد الحكيم عامر - كما سبق وأوضحت - على إبعاد الرئيس عن كل ما يتعلق بالقوات المسلحة، وهو ما أدى إلى التناقض بين أهداف السياسة العليا للدولة التى يحددها رئيس الجمهورية، وبين خطط حشد وتعبئة القوات المسلحة التى يصدرها القائد العام للقوات المسلحة.

التخطيط لمعركة التحرير

اهتم الرئيس جمال عبد الناصر بأجهزة التفكير والتخطيط العسكرى لتكون الخطط العسكرية التى توضع لبناء الجيش فى حدود الفترة التى قدرها وأعلنها للقادة العسكريين بثلاث سنوات؛ هى نتاج فكر جماعى مدروس دون فردية أو شطط.

وعكفت تلك الأجهزة المتخصصة على دراسة ووضع الخطط العسكرية الكفيلة بتحقيق هدف تحرير الأرض، وتحديد حجم ومقومات القوات التى يمكنها تحقيق الهدف، والمراحل التى يسير بها العمل المنسق بين مختلف أسلحة القوات المسلحة، وتدرج العمليات العسكرية التى يقوم بها الجيش على جبهة القناة، وانتهت إلى خطة واضحة اعتمدها رئيس الجمهورية على أن تطور هذه الخطة كل ستة شهور.

وهكذا وضعت الخطة على أساس تحديد جميع الخطوات اللازمة من أول بناء المقدرة الدفاعية إلى دخول معركة التحرير بعد ثلاث سنوات، وعلى أساس أن تراجع الخطة كل ستة شهور على ضوء التطور الفعلى الذى يتم فى قواتنا، والتطور الذى يتم فى قوات العدو، فى نفس الفترة.

حجم الجيش العامل

وقد اهتم الرئيس جمال عبد الناصر بحجم القوات المسلحة المصرية وعمد إلى أن تفوق فى عددها العدد الذى تستطيع إسرائيل أن تحشده فى حالة التعبئة العامة، وبحيث يكون هذا العدد جنوداً وضباطاً من القوات العاملة حتى لا تتكرر أخطاء ومساوئ أسلوب التعبئة العامة الذى وضع فى عام ١٩٦٧.

التدريب على الأسلحة المتطورة

وعنى الرئيس عبد الناصر بنوعية السلاح وتمكن من تسليح القوات المسلحة بآخر ما فى الترسانة السوفيتية من أسلحة كانت تتدفق على قواتنا مع تزايد تطور إمكانيتها.

الارتقاء بنوعية المقاتل المصرى

ومما ساعد على سرعة استيعاب التدريب على الأسلحة المتطورة التغيير الجذرى فى نوعية المقاتل المصرى بعد الاعتماد على خريجى الجامعات والمعاهد العليا القادرين على استخدام الأسلحة المتطورة تكنولوجيًا، والذين تم تجنيدهم ممن تخرجوا فى تلك السنوات والذين أقبلوا على التجنيد بحماس منقطع النظير، كما ساعد عليه التدريب والإعداد الجاد والمستمر الذى كان يتم فى مناطق تشابه ظروف الجبهة وقناة السويس، حتى أتقن جميع أفراد القوات المسلحة تدريبات العبور فى الليل والنهار.

حل مشاكل الضباط والجنود

وكان اهتمام عبد الناصر كبيراً بالروح المعنوية للضباط والجنود، وكان عند حضوره مشروعات التدريب والمناورات دائم السؤال عن طعامهم وعن مشاكلهم الشخصية ومشاكلهم العامة، ويسعى إلى حلها، كما بادر - وعلى سبيل المثال - بتعديل نظام الإجازات للضباط والجنود على الجبهة بحيث لا تطول كثيراً فترات تغيبهم عن عائلاتهم؛ حرصًا على استقرارهم الاجتماعى بعد أن لاحظ بعض الشواهد السلبية فى هذا المجال.

اجتماعات عبد الناصر بالضباط والجنود

وكانت اجتماعات الرئيس عبد الناصر المستمرة بالقادة العسكريين تركز على ضرورة اهتمامهم بالروح المعنوية للجنود والضباط، وترسيخ مفهوم أن لا مفر من الحرب، وتعميق إيمانهم بالقضية التى يحاربون من أجلها بالشرح المستمر لهم عن عدالة الهدف الوطنى لبلدهم، وممارسات العدو وأهدافه، والظروف الدولية المحيطة بالصراع. وكان الرئيس عبد الناصر مهتمًا بألا يكون الشحن المعنوى على أساس فكرة الأخذ بالثأر؛ لأنها مفهوم ضيق، فى حين أن فهم أبعاد الصراع العربى - الإسرائيلى هو المدخل الحقيقى للإيمان بحتمية القتال، فضلاً على أنه يضمن سلامة الرؤية السياسية للضابط والجندى تحت كل الظروف. كما كان الرئيس يطالب بالاهتمام والتركيز على القيم الدينية لدى الأفراد.

وكان بناء الجيش فى ظل المعارك القتالية على الجبهة أفضل أسلوب لبناء قوات مسلحة على مستوى عال من الكفاءة والمقدرة على القتال، وفرصة نادرة لرفع الكفاءة القتالية للمقاتل علىّ جميع المستويات، كما مكنت قواتنا المسلحة من معرفة أسلوب القتال للعدو وتكتيكاته والوقوف على قدراته الحقيقية، وحرمان العدو بالتالى من أية مفاجأة أو خداع يقوم بها خلال معركة التحرير المنتظرة.

ولقد مرت المواجهة بين مصر وإسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ وخلال حرب الاستنزاف بثلاث مراحل :

(١) مرحلة الصمود : (يوليو ٦٧ - مارس ١٩٦٨)

بعد أن أعلنت مصر رفضها للهزيمة وإصرارها على مواصلة القتال قام العدو بسلسلة من الاعتداءات لإحباط الروح المعنوية للقيادة والشعب المصرى لكى يستجيب للضغوط الإسرائيلية الأمريكية لفرض صلح منفرد على مصر بالتفاوض المباشر مقابل شروط تفرضها إسرائيل، مستغلة انكسار الغطاء العسكرى للإرادة السياسية فى حرب ١٩٦٧.

معركة رأس العش

فى أول يوليو ١٩٦٧ قام العدو بمهاجمة جزء من الأرض شرق وجنوب مدينة بور فؤاد لم يكن قد احتلته ضمن احتلالها لسيناء، وكانت لنا بعض القوات التى تمركزت فيه، وبالفعل هاجمت قوات العدو الموقع من أكثر من نقطة اقتراب أرضًا وجوا، ولكن قواتنا صمدت له، فحاول الاقتراب من مدينة بور فؤاد ولكن المدفعية ردته، وتمكن رجال الصاعقة من عبور القناة وتفجير مخازن للذخيرة حتى لا يستخدمها العدو فى المعركة، وكانت هذه أول معارك الصمود بعد مرور عشرين يومًا فقط على الهزيمة ووقف إطلاق النار، وانتهت بانتصار محدود لقواتنا ولكن آثاره النفسية الإيجابية كانت بغير حدود.

التصدى لطائرات العدو

ثم كانت ثانى الانتصارات المحدودة من نصيب القوات الجوية فى يومى ١٤ و١٥ يوليو ١٩٦٧ حين تصدت طائراتنا لطائرات العدو التى كشفت من استطلاعها فوق قناة السويس إثر معركة رأس العش، وفى يوم ١٤ يوليو أسقطت طائراتنا مقاتلتين للعدو، وتكررت ذات النتيجة للمواجهة فى اليوم التالى، وإثر ذلك ارتفعت معنويات طيارينا، وزادت ثقتهم فى طيراننا، كما بدأت الثقة تعود من جديد بين رجال القوات المسلحة وبين القوات الجوية.

إغراق المدمرة إيلات

وفى ٢١ أكتوبر ١٩٦٧ حققت القوات البحرية انتصاراً ضخمًا كانت له أصداؤه

العالمية سياسيا وعسكريا حين تمكن اثنان من زوارق الصواريخ المصرية من إغراق المدمرة إيلات التى وصلت مياهنا الإقليمية فى منطقة بور سعيد، وكان واضحًا أن هذه القطعة التى كانت أكبر قطع الأسطول الإسرائيلى قد دخلت مياهنا الإقليمية فى تحد لإرادة القتال المصرية، ولم تتصور أن البحرية المصرية بعد الهزيمة تملك الكثير إزاء هذا التحدى، ويبدو أن العدو الذى ركبه الغرور بعد «انتصار» ١٩٦٧ قد تصور أن عبد الناصر يمكن أن يسكت إزاء التحدى بسبب الهزيمة.

وصدرت الأوامر بالتعرض للمدمرة وإغراقها، وخرج زورق الطوربيد الأول بقيادة النقيب أحمد شاكر، وتلاه الثانى بقيادة النقيب لطفى جاد الله، وبالفعل تمكن النقيب أحمد شاكر من المدمرة فأطلق عليها أول صواريخه ليصيبها إصابة مباشرة لتميل على جانبها، فعاجلها بالصاروخ الثانى. وبعدها بساعتين أطلق النقيب لطفى جاد الله صاروخيه عليها ليكمل رحلتها إلى أعماق البحر بطاقمها العسكرى المكون من ٢٥٠ ضابطًا وجنديا.

ولم يشأ الرئيس جمال عبد الناصر أن تعلن مصر عن إغراقها المدمرة إيلات إلا بعد أن يتيقن بصفة أكيدة من أنها بالفعل هى «إيلات»، فصدر أول بلاغ مصرى يعلن عن نجاح قواتنا البحرية فى إغراق هدف بحرى إسرائيلى كبير، ولكن العدو الذى لم يكن يستطيع إخفاء خبر بهذه الضخامة عن الإسرائيليين اعترف بأن الهدف هو «إيلات» أكبر القطع البحرية الإسرائيلية.

وكان لهذا الإنجاز العسكرى الكبير أثره الضخم على الشعب والقوات المسلحة حتى أن يوم ٢١ أكتوبر وهو اليوم الذى تم فيه إغراق المدمرة إيلات أصبح عيدًا للبحرية.

واستدعيت فى ذات يوم إلى مستشفى المعادى لحضور «قومسيون» عسكرى لتوقيع الكشف الطبى على أحد الضباط، وكان هو النقيب أحمد شاكر الذى كان يشكو من مرض خطير فى النخاع الشوكى لا أمل فى شفائه، وكان قد تقدم بطلب للسفر إلى الخارج للعلاج، ووجدت النقيب أحمد شاكر هادئًا يعكس وجهه الارتياح بعد أن أدى واجبه نحو وطنه على أحسن ما يكون، وبرغم أن اللوائح كانت تقف عائقًا أمام سفره لعدم جدوى العلاج فى الخارج، فلقد قررنا سفره

مقدرين أن ذلك هو أقل ما نملكه إزاء هذا البطل الذى رفع اسم مصر عاليًا فى وقت من أصعب الأوقات.

وإثر إغراق المدمرة إيلات بدأ العدو بعد ثلاثة أيام فى ضرب مستودعات الوقود ومعامل تكرير البترول فى السويس ضربًا متواصلاً بالقذائف الثقيلة، وسرعان ما نجحنا ضمن خطة إعداد الدولة للحرب من نقل معامل التكرير إلى العمق فى مناطق القاهرة والإسكندرية والدلتا والوجه القبلى.

تهجير الأهالى من منطقة القناة

كذلك سارعت الحكومة إلى إخلاء مليون ونصف مواطن من مدن القناة الثلاثة إلى العمق، ورتبت لهم أماكن الإعاشة فى سرعة بالغة وكان لهذا العمل الكبير مغزاه الذى لم يفت على العدو، فلقد كان التهجير بهدف تأمين السكان الذى كانت إسرائيل تعتبرهم رهائن تحت رحمة مدفعيتها للضغط على مصر ضد أية عمليات عسكرية تقوم بها قواتنا، وكان واضحًا أن تهجير مثل هذا العدد الضخم - والذى يعادل نصف سكان إسرائيل - بهذه السرعة يعبر عن قدرة إدارية عالية، وعن جدية فى إعداد الدولة للحرب، وعن تصميم على خوض حرب تحرير طويلة المدى.

(٢) مرحلة المواجهة (مارس ٦٨ - إبريل ١٩٦٩)

تميزت هذه المرحلة - بسرعة استكمال البناء العسكرى، وتصاعد القدرات القتالية المصرية، والانتقال إلى مرحلة المواجهة وتكثيف عمليات العبور والتعرض للعدو فى سيناء ليلاً ونهاراً بمشاركة القوات البرية والجوية.

وقام الرئيس عبد الناصر بأول زيارة للجبهة فى ١٠ مارس ١٩٦٨ واجتمع بأعداد كبيرة من الضباط والجنود، وكانت لزيارته فعل السحر فى الروح المعنوية.

وكانت التحصينات جارية فى الوقت نفسه الذى تتم فيه عمليات العبور والاقتحام والاشتباكات بالمدفعية التى تمكنت من إنزال إصابات بالغة بالعدو؛ مما أثر كثيراً على الروح المعنوية.

وكان من أول عمليات العبور التى تمت هى تلك التى وجهت إلى نقطة العدو الحصينة فى الدفرسوار فى شهر أكتوبر ١٩٦٨ ، بعد التدريب على موقع من نفس المواصفات وبذات التحصينات أقيم خصيصًا للتدريب عليه فى الإسماعيلية ، وتمكنت قواتنا من اقتحام النقطة الحصينة فى هدوء الليل ، وفى مفاجأة كاملة أذهلت قوات العدو ، وكانت هذه العملية فاتحة لعمليات تالية كثيرة نفذت بقوات متزايدة فى عددها ، متنوعة فى الأهداف المحددة لها ، كما أخذت المدد المحددة لبقاء قواتنا على الجانب الآخر تطول مع كل عملية .

(٣) مرحلة التحدى والردع : (إبريل ٦٩ ـ يوليو ١٩٧٠)

دخلت قواتنا المسلحة هذه المرحلة الحاسمة بفضل التطوير المستمر والجاد الذى مضى فيه العمل العسكرى حتى أصبحت قواتنا تقوم بعمليات حربية ضد العدو فى عمق سيناء برا وجوا وبحراً ، ووصلت إلى حدودنا الدولية مع فلسطين فى شمال سيناء عند العريش ، وإلى إيلات على خليج العقبة جنوبًا ، وإزاء هذا التصاعد فى عدد وحجم العمليات المصرية اضطرت إسرائيل إلى زيادة قواتها والعمل على انتشارها ، وأشركت سلاحها الجوى فى المعارك باستمرار ، وهو ما شكل ضغطًا كبيراً عليه ، وتصاعدت المواجهة إلى الحرب الشاملة ، وكثفت عمليات العبور شرق سيناء على مدى الليل والنهار ، وكانت قواتنا تقوم بالهجوم على المواقع الإسرائيلية مما أثر على معنويات القوات الإسرائيلية إلى حد كبير وتحولت عملياتها إلى ردود فعل لعملياتنا .

وكان الرئيس يقول لى : «إن أولادنا يعبرون القناة كل يوم طوال الأربعة والعشرين ساعة ، ويقومون بعمليات فدائية ضد القوات الإسرائيلية فى سيناء ، ويجدون أقصى التعاون من السكان المدنيين فى مدن القناة » وكثيراً ما كان الرئيس يثنى على الفريق فوزى لإنجازاته فى إعادة البناء العسكرى يقول لى : «خلى بالك من فوزى ده معاه جميع خططنا » .

وإزاء قلق العدو من كثافة عمليات قواتنا ضده ليلاً ونهاراً ، وفى محاولة لكسر حدة التصاعد فيها ، قام بمحاولة لاحتلال الجزيرة الخضراء جنوب لسان بور توفيق ،

ولكن القوات المصرية فى الجزيرة نجحت فى صد قوات العدو وتدخلت المدفعية من غرب القناة بكل ثقلها لتبيد قوات العدو ولتجبر من تبقى منهم على الانسحاب تاركين معداتهم المدمرة.

وأمام فشل القوات البرية فى إيقاف الموجات المتتالية من العمليات العسكرية لقواتنا بدأت إسرائيل تدخل سلاحها الجوى ليلاً ونهاراً ضد قواتنا فى الجبهة، وكانت قواتنا الجوية تتصدى له.

وكان الرئيس عبد الناصر يتابع كل عملية تقوم بها قواتنا شرقًا فى سيناء باهتمام بالغ، ويبقى عادة فى قمة الانفعال حتى تنتهى العملية ويعود الجنود المشتركين فيها إلى مواقعهم غرب القناة، وكان حزنه شديداً حين يعلم باستشهاد أى جندى أو ضابط بقدر فرحته بنجاح العمليات. وأذكر فى ذات مرة أن وجدته حزينًا فى الصباح، وحين استفسرت حدثنى عن شهيد عبر مع قواته فى عملية فدائية ليلاً، وبعد أن أبلى بلاءً ممتازاً وساهم فى نجاح العملية، استشهد وهو فى طريق العودة، وقال عبد الناصر بالحزن كله: «خسارة.. ده كان خلص العملية بنجاح».

كذلك كان عبد الناصر يبقى ساهراً الليل كله إذا أسقط العدو إحدى طائراتنا ويكون الطيار قد نزل بالمظلة فى سيناء، ويظل يتابع جهود البحث عنه، ولا يقبل أن تتوقف هذه الجهود مهما طالت حتى يجدوا الطيار.

وإزاء فشل القوات البرية والجوية فى إيقاف تصاعد العمليات العسكرية المصرية بدأ فى توجيه عمليات فى أقصى الجنوب فى البحر الأحمر من الأدبية إلى القصير وهى مسافة ٥٠٠ كيلو متر، وكانت غير مشغولة بقوات كثيفة حتى ذلك الوقت من عام ١٩٦٩ ليجبرنا على نشر قوات فيها وتخفيف العبء والضغط الذى تمارسه قواتنا ضده على جبهة القناة.

وفى يوم ٩/٩/١٩٦٩ قامت إسرائيل بعملية إنزال قوامها تسع دبابات برمائية على شاطئ خليج السويس فى أقصى الجنوب قرب الزعفرانة، وهاجمت نقطة خفر السواحل وقتلت خمس جنود ودمرت عدد من السيارات المدنية المارة بالمنطقة وقتلت بعض المدنيين مستغلة عدم وجود قوات مسلحة فى هذه المنطقة، وقد سبق الإشارة إلى هذه الغارة وإصابة جمال عبد الناصر بعدها بجلطة فى الشريان التاجى للقلب.

وفور أن علم الرئيس بما جرى وهو يتابع مشروع فرقة مدرعة حديثة التكوين أمر رئيس هيئة الأركان بالتوجه رأسًا إلى الزعفرانة لاستطلاع الموقف واتخاذ الإجراءات اللازمة لحسمه من الموقع وعلى الطبيعة.

ولم يستطع الرئيس أن يستمر مع الفرقة المدرعة طوال اليوم وفضل العودة إلى القاهرة بعد الظهر ليتابع الموقف فى الزعفرانة. وحيث وصل فوجئ بأن رئيس هيئة الأركان قد سبقه إلى القاهرة وراح يتابع الموقف من مكتبه فى القيادة العامة. واستمر الرئيس يتابع الموقف مع وزير الحربية وكذا من الإذاعات الأجنبية التى كانت قد بدأت تذيع أخبار عملية الإنزال المحدودة، وتصور الأمر كأنه انتصار ساحق للقوات الإسرائيلية.

وكان جمال عبد الناصر متأثرًا من موقف رئيس الأركان فى ذلك الوقت وقد أقاله الرئيس لعدم تنفيذ تعليماته بالتوجه إلى الزعفرانة لوضع حد من هناك للإنزال الإسرائيلى.

وحين كان الرئيس عبد الناصر فى دور النقاهة إثر إصابته بجلطة فى الشريان التاجى، كما سبق أن أوردت طلبت منه ألا يتابع تنفيذ العمليات الفدائية من ساعة خروج القوات إلى العملية، ولحين عودتها حتى لا تتأثر حالته الصحية من كثرة الانفعالات وأن يبلغ بنتائجها بعد عودة القوات، فوافق على ذلك. ولكننى فوجئت بعدها بأنه لم يستطع تنفيذ الاتفاق، وحين حاولت أن أتحدث معه فى الأمر لخطورته على حالته الصحية نتيجة الانفعال الشديد التفت إلىّ عاتبًا وقال: «يعنى عايزنى أعرف أخبار مصر من الجرايد»؟!

وفى نهاية ١٩٦٩ اتخذ الرئيس عبد الناصر قرارًا بتصعيد العمليات العسكرية ضد إسرائيل على جميع الجبهات، بعد أن وصلت القوات المصرية إلى درجة عالية من القدرة والكفاءة، وقامت بسلسلة من الأعمال الناجحة تم خلالها تدمير نقطة حصينة للعدو فى سيناء وعودتها سالمة.

ويتضح مدى الفعالية التى بلغتها قواتنا المسلحة خلال هذه الفترة من حرب الاستنزاف من اضطرار موشى ديان للاعتراف بالخسائر التى تكبدتها إسرائيل، مع الأخذ فى الاعتبار حرص قادة إسرائيل دائمًا على إخفاء خسائرهم خشية على درجة تأثر الروح المعنوية للإسرائيليين.

ومع بداية عام ١٩٧٠ عقد الرئيس جمال عبد الناصر سلسلة من الاجتماعات مع كبار قادة القوات المسلحة فى بداية عام حاسم، وتم حصر كل احتياجات مصر للوصول إلى مرحلة بدء حرب التحرير وكانت أساسًا صواريخ متصلة بالدفاع الجوى والقوات الجوية.

وفى هذه الفترة بدأ العدو فى تصعيد جديد لعملياته مستخدمًا طائراته طويلة المدى فى ضرب العمق المصرى، كما سيأتى ذكره فيما بعد.

وكان رد الفعل أن ازداد الشعب تلاحمًا مع الجيش، وعلقت صحف العالم مندهشة من موقف شعب مصر الذى يمشى فى الشوارع ويمارس حياته العادية خلال غارات العمق الإسرائيلية.

واستمرت العمليات الناجحة للقوات المسلحة فى سيناء تتوالى وتصاعدت العمليات العسكرية على طول جبهة القتال.

وهنا تجدر الإشارة إلى عملية معينة تمت فى يوم أول مايو ١٩٧٠ كانت من أنجح العمليات التى تمت خلال حرب الاستنزاف، فأثناء إلقاء الرئيس عبد الناصر لخطابه فى عيد العمال والذى وجه فيه نداء إلى «نيكسون» بأن تراعى أمريكا اتخاذ موقف أكثر توازنًا من قضية الشرق الأوسط، وهو الخطاب الذى وصفته الدوائر العالمية بأنه كان فرصة للسلام أتاحها عبد الناصر لنيكسون؛ كانت قواتنا المسلحة تعبر قناة السويس واحتلت نقطة حصينة للعدو، واستولت على ما فيها من سلاح ومعدات. وظلت قواتنا فى الموقع يومًا كاملاً. وكانت هذه العملية مكملة لرسالة الرئيس «نيكسون»، فقد أراد عبد الناصر أن يقول: نعم نحن دعاة سلام ولكنه من موقف مبنى على القوة فهدفنا هو السلام.. ولكنه السلام العادل.

غارات العمق والرحلة السرية إلى موسكو

فى أوائل يناير ١٩٧٠ قامت إسرائيل بغارات جوية فى العمق المصرى وضربت المعادى ومصنع أبو زعبل ومدرسة بحر البقر، وكان الهدف من هذه الغارات أن يحس الشعب المصرى بالحرب ويعمل على إسقاط حكم جمال عبد الناصر.

وبعد الغارة الإسرائيلية على أبو زعبل قرر جمال عبد الناصر التوجه إلى موسكو للاجتماع بالقادة السوفيت من أجل سرعة الاستجابة لتقوية وسائل الدفاع الجوى، ووقف الغارات الإسرائيلية فى العمق، وكان قراره أن تكون الزيارة سرية لأنه توقع أن تكون نتائجها على جانب ضخم من الأهمية الإستراتيجية العسكرية.

فى ذلك اليوم كنت فى زيارة للرئيس فى استراحة القناطر الخيرية حيث كان مريضًا بالتهاب رئوى، وما أن دخلت حتى بادرنى بقوله بلهجة حاسمة وقاطعة:

أنا عايز أروح روسيا فوراً ومش عايزك تقول لأ. . أنا ماأقدرش أقعد أتفرج على البلد وهى بتنضرب. . أرَوَّح بيتنا أحسن.

قلت له بهدوء: طبعًا لازم تسافر، وبعد قليل قلت له إنه مريض بالتهاب رئوى وأنه سيسافر بعد انخفاض الحرارة، وكانت حرارته يومها أربعين درجة مئوية.

وبعد ثلاثة أيام من العلاج انخفضت درجة حرارته، وأحس الرئيس بتحسن فى حالته العامة، ولكنى أخبرته أنه لا يمكن أن يسافر قبل ثلاثة أيام حتى تستقر الحالة ولا يتعرض لنكسة.

وفى مساء ذلك اليوم، وكان الجو بارداً دق جرس التليفون فى منزلى ليطلب منى مكتب الرئيس أن أجهز حقيبتى للسفر حيث تقرر سفرنا فى الخامسة من صباح اليوم التالى ٢٢يناير ١٩٧٠، وفعلاً أعددت الحقيبة وأرسلتها لهم ليرسلوها إلى الطائرة فى الصباح.

كانت الرحلة سرية لا يعلم بها أحد. . وأخبرنى مدير الأمن فى الرئاسة بعدها أنهم أرادوا أن يعرفوا وجهتنا فلم يجدوا وسيلة إلا أن يفتحوا حقيبتى ويفحصوا ملابسى فاستنتجوا من نوعية الملابس الثقيلة جدا أننا سنسافر إلى موسكو، ومن قلة ما معى من ملابس أن الرحلة ستكون قصيرة وقد كان مصيبًا فى استنتاجاته كلها.

وفى صباح اليوم التالى أخبرت زوجتى أننى مسافر إلى الجبهة مع الرئيس، وتوجهت إلى مطار ألماظة، وركبنا الطائرة فى الطريق إلى موسكو، وأثناء الرحلة غيرنا المسار عن الطريق المعتاد حفاظًا على سرية الرحلة، ووصلنا موسكو بعد حوالى ست ساعات.

وفى موسكو توجهنا إلى قصر الضيافة في تلال لينين، وكانت درجة الحرارة تبلغ ١٦ درجة مئوية تحت الصفر في ذلك اليوم والثلج يتساقط بغزارة، ولكننا لم نشعر ببرودة الجو؛ فقد كانت التدفئة في القصر مناسبة، وفى المساء حضر «بريجنيف» لزيارة الرئيس عبد الناصر.

وفى اليوم التالى بدأت المباحثات الرسمية، وكان الرئيس جمال عبد الناصر حاسمًا غير قابل لأنصاف الحلول، وقال إذا كان الاتحاد السوفيتى لن يجيبه إلى طلباته كلها الخاصة بالدفاع الجوى، فإنه سيتحمل تبعات ذلك أمام الشعب العربى فى مصر وفى كل الدول العربية.

وقدم الرئيس طلباته: وحدات كاملة من الصواريخ سام ٣ بأطقمها السوفيتية، وأسراب كاملة من الطائرة ميج ٢١ بطياريها وأجهزة رادار متطورة للإنذار والتتبع بأطقمها، وقال إنه يصر على حضور الأطقم السوفيتية من ضباط وجنود لتشغيل المعدات فورًا حتى يتدرب المصريون على تشغيلها، وطلب قاذفات طويلة المدى قادرة على الوصول إلى عمق إسرائيل.

وإزاء إصرار الرئيس عبد الناصر وعدم تنازله عن أى مطلب؛ أوضح «بريجنيف» أنه لابد أن يرجع لمجلس رئاسة السوفيت الأعلى.

وفى صباح اليوم التالى بدأ بريجنيف الجلسة بأن أبلغ الرئيس بموافقة اللجنة المركزية ومجلس السوفيت الأعلى على جميع طلباته، وقال: «أرجو أن تقدر - يا سيادة الرئيس - أن هذه هى أول مرة منذ الحرب العالمية الثانية يخرج فيها جندى سوفيتى إلى دولة صديقة، ولقد وافقنا على ذلك فقط تقديرًا لك وتقديرًا لشعب مصر.

ونفذ الاتحاد السوفيتى وعده على الفور وفى خلال أيام كان كل ما طلبه عبد الناصر قد وصل.

وأثناء إقامتنا فى موسكو لم يسمح لأحد بالخروج من قصر الضيافة، ولكن بالرغم من ذلك فقد رتب الرئيس لى جولة فى موسكو، وكان هذا شعورًا رقيقًا نحوى.

وكان الإنجاز الذى تم خلال هذه الرحلة أبرع ما قام به الرئيس عبد الناصر منذ بدء عمليات إعادة البناء فلقد كانت نوعية الدعم بالمعدات التى لم تخرج من حدود دول الكتلة الشرقية، وتواجد الطيارين والأطقم السوفيتية فى مصر ردعًا للولايات المتحدة وإسرائيل، واضطرت واشنطن أن تعيد حساباتها لأن الاتحاد السوفيتى أصبح يشارك فعليا فى المواجهة العسكرية.

وحدث بعد ذلك أن كانت الطائرات الإسرائيلية فى الطريق لعمليات ضد الجبهة المصرية حين التقط طياروها حديثًا بالروسية بين اثنين من الطيارين فى المقاتلات التى خرجت لمواجهتهم فعادوا إلى قواعدهم على الفور، ولم يحاولوا الاشتباك معهم، وبعدها قرر «موشى ديان» عدم التعرض للعمق المصرى.

وهكذا نجح جمال عبد الناصر فى وقف الغارات الإسرائيلية فى العمق المصرى، وكانت الحكومة الأمريكية قد هددت بأن هذه الغارات سوف تستمر وتتزايد بصورة أكبر لتشمل الأهداف الاقتصادية المصرية.

وكان السفير الروسى فى القاهرة متعاونًا معنا إلى أقصى درجة وبذل جهدًا كبيرًا لكى نحصل على كل ما طلبناه من القادة السوفييت، ومما ساعد على ذلك أنه كان عضوًا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى.

وحين مرض السفير الروسى فى نوفمبر ١٩٦٩ كان جمال عبد الناصر شديد الاهتمام به فقد استدعانى لمقابلته ظهرًا رغم إننى كنت فى زيارته فى صباح اليوم نفسه، وطلب منى زيارة السفير السوفييتى لأنه مريض وقد قام الأطباء السوفييت بعلاجه ولكنه لم يتحسن وقال:

«أرجو أن تفعل ما فى وسعك لأن السفير مهم جدا لنا ونحن فى أشد الحاجة إليه فى ذلك الوقت».

ذهبت إلى السفير فوجدته يعانى من مغص مرارى شديد مصحوب باحتباس فى الصفرا، وكانت حالته العامة غير مطمئنة.

أجريت له «كونسلتو» بناءً على طلب الرئيس، وبعثت فى طلب الدكتور ناصح أمين لعمل التحليلات اللازمة، وكنت أعوده مرتين فى اليوم صباحًا ومساءً، وأمكن السيطرة على الأزمة بعد أسبوع، وكان الرئيس دائم السؤال عن حالته.

وبعد انتهاء الأزمة طلبت فحص المرارة بالأشعة بمعرفة الدكتور محمد عبد الوهاب أستاذ الأشعة بجامعة القاهرة، ووجدنا أن المرارة سليمة وخالية من الحصوات، وكنت آمل أن نجد حصوات، لأن البديل كان مزعجًا.

وحين سافرنا إلى موسكو عقب الغارة الإسرائيلية على «أبو زعبل» رافقنا السفير فطلبت منه أن يتخلف هناك ويدخل المستشفى لإجراء المزيد من البحوث لمعرفة سبب المرض وأخبرته باحتمال التدخل الجراحي.

ولكن عند عودتنا إلى القاهرة وجدته معنا على الطائرة وذكر لى أنه سيعود ثانية إلى موسكو، فكررت طلبى بضرورة دخوله المستشفى.

سافرت بعد ذلك إلى باريس فى مهمة علمية لمدة خمسة عشر يومًا، وخلال تلك الفترة عاودت السفير الأزمة ودخل مستشفى المعادى وتقرر سفره إلى موسكو، وهناك أجريت له عملية جراحية اتضح أثناءها وجود مرض خبيث وتوفى بعد أيام من إجراء الجراحة.

تشييد قواعد الصواريخ

بعد نجاح الرحلة السرية إلى موسكو بدأت أكبر عملية لتشييد مواقع الصواريخ عرفتها مصر.

وحين اكتشف الإسرائيليون أن الصواريخ المصرية تقترب من منطقة غرب القناة ركزوا كل جهودهم لتعطيل تحقيق هذا الهدف.

كانوا يقومون بعشرات الإغارات يوميا، ويلقون آلاف من أطنان المتفجرات على المواقع الجارى بناؤها. كانوا يغيرون عليها صباح مساء، سقط الشهداء من عمال مصر فى الصراع الضارى والمعارك الطاحنة من أجل إقامة مواقع الصواريخ، وكانت قوات الدفاع الجوى فى اشتباكات مستمرة مع طيران العدو وخرجت قواتنا الجوية لتدمر أهداف العدو من شط القناة شرقًا إلى عمق سيناء.

وكان الرئيس عبد الناصر فى اجتماعات مستمرة طوال هذه الفترة مع قادة القوات المسلحة وقادة الدفاع الجوى خاصة، ووصلت اجتماعاته إلى مستوى قادة

كتائب الدفاع الجوى، ونجحت قواتنا فى إسقاط ١٥ طائرة فانتوم وسكاى هوك للعدو فى أسبوع واحد أسمته صحف العالم «أسبوع تساقط الطائرات »، وكانت ردود الفعل واسعة عنيفة فى أمريكا وإسرائيل إزاء بدء تآكل سلاح الجو الإسرائيلى .

وفى نهاية يونيو ١٩٧٠ قام الرئيس عبد الناصر بزيارة أخرى لموسكو حصل فيها على ما طلبه من دعم لنظام الدفاع الجوى بشبكة أجهزة إلكترونية حديثة، وسرعان ما وصلت وتدرب عليها المصريون، وبدأ بالفعل استخدامها .

قبول مبادرة روجرز ووقف إطلاق النار

فى ٢٠ يونيو ١٩٧٠ كانت مصر قد تلقت مبادرة «روجرز» التى تقدم بها «وليم روجرز» وزير خارجية أمريكا فى ذلك الوقت، وعكفت الأجهزة الرسمية على دراستها بتكليف من الرئيس. وكانت المبادرة تنص على وقف إطلاق النار الكامل لمدة ثلاثة شهور، وعلى أن يمتنع الطرفان عن تغيير الوضع العسكرى فى داخل المنطقة التى تمتد لمسافة خمسين كيلو متر شرق وغرب القناة .

كانت الولايات المتحدة ترصد تصاعد القدرات العسكرية المصرية، وكانت تخشى من أن استمرار الحرب بعد الدعم السوفييتى لمصر فى ١٩٧٠ قد يصل إلى نقطة المواجهة بين القوتين الأعظم، فأرادت أن تفتح الطريق للتفاوض غير المباشر وغير المشروط مسبقًا، متنازلة بذلك هى وإسرائيل عن مطلب التفاوض المباشر حول شروط محددة .

ومن وجهة النظر المصممة على خوض معركة التحرير كانت للمبادرة إيجابية مهمة وهى دفع حائط الصواريخ، إلى حافة القناة لتغطى رءوس قواتنا التى ستعبر وتؤمن لها السماء لمسافة ٢٥ إلى ٣٠ كيلو متر داخل سيناء .

وفى ٢٣ يوليو ١٩٧٠ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر قبوله مبادرة «روجرز» فى خطابه بمناسبة أعياد الثورة، وفى ذات الخطاب أعلن عن انتهاء العمل فى السد العالى الذى كان بالنسبة له يعنى الكثير، وبالنسبة لشعب مصر يجسد الكفاح وقبول التحدى .

وخرجت بعض الصحف العربية تهاجم مصر لقبولها المبادرة غير واعية لأسباب قبولها وهو عزم جمال عبد الناصر على تحريك الصواريخ! وكان الرئيس عبدالناصر مستاء من موقف الصحف وأجهزة الإعلام المصرية، التى لم تواجه هذا الهجوم بذكاء وقد شكا لى من ذلك.

ولقد قال لى جمال عبد الناصر، وهو فى سعادة بالغة: «لقد قمنا بتحريك الصواريخ واتهمتنا إسرائيل بخرق وقف إطلاق النار» ثم سكت لحظة واستطرد قائلاً: «ومن إمتى إسرائيل بتحترم اتفاقيات وقف إطلاق النار؟!».

قامت أمريكا بتعويض إسرائيل عن خسائرها من طائرات الفانتوم ورفضت إسرائيل إرسال مندوبها إلى نيويورك للتفاوض غير المباشر.

وفشلت مبادرة روجرز من أول لحظة فى الوصول إلى حل دبلوماسى، ولكنها نجحت إلى آخر المدى من وجهة نظر مصر التى قبلتها؛ لتدفع بصواريخها إلى حافة مياه القناة تمهيداً لبدء معركة التحرير الكبرى.

هكذا كانت ملحمة جمال عبد الناصر فى بناء جيش مصر الحديث؛ مليئة بالبذل والعطاء، وتمكنت قواتنا المسلحة بفضل التدريب الشاق والجهد المتواصل من تحقيق النصر فى أكتوبر ١٩٧٣، وخاب ظن ديان حينما أعلن بعد هزيمة يونيو ٦٧ أنه قد تم تحطيم الجيش المصرى، ولن تقوم له قائمة قبل عشر سنوات.

زيارة الجبهة

أثناء فترة وقف إطلاق النار قمت بناءً على طلب جمال عبد الناصر بزيارة الجبهة، ومعى فريق من الأطباء، وكان الرئيس قد قال لى: «أنا عايز أولادنا يحسوا إنكم مهتمين بهم، عايزكم تقعدوا معاهم، تدرسوا مشاكلهم وتتعرفوا على الجهد الذى يبذلونه، وبعد ذلك سأطلب من الوزراء الذهاب إلى هناك».

وفى الصباح ركبنا الأتوبيس بعد أن ارتدينا زيا عسكريا لأمننا الشخصى حتى لا نكون عرضة لاحتمال أن يطلق العدو رصاصة على زوار مدنيين فى خط المواجهة، وتوجهنا إلى جبهة القتال حيث زرنا الجيش الثالث، وكان قائده اللواء محمد

البورينى فى استقبالنا . كما تقابلنا هناك مع اللواء يوسف صبرى أبو طالب وكانت تربطنى بهما صداقة من قبل ذلك، وخلال زياراتنا لعدد من المواقع تحدثنا إلى الجنود والضباط، وكان إعجابنا شديداً بروحهم القتالية العالية وتعطشهم لملاقاة العدو .

واصطحبنا اللواء البورينى لزيارة مركز قيادة الجيش الذى تم بناؤه تحت الأرض، وشرح لنا كيف يتم الاتصال بجميع الوحدات بدقة وسهولة تامة، وأوضح لنا أنه منذ بدأ حرب الاستنزاف تم بناء جميع ملاجئ الطائرات محصنة تحت الأرض بعد أن كانت مكشوفة قبل ذلك، ومعرضة للقصف المستمر .

وشاهدنا الساتر الترابى الضخم على ضفة القناة الشرقية الذى يحجب الرؤية لما وراءه، والذى تمكنت قواتنا فى حرب ١٩٧٣ من تحطيمه وعبوره باقتدار أذهل العالم كله .

ثم ركبنا زورقًا إلى الجزيرة الخضراء التى حفر اسمها بالشرف فى سجل معارك حرب الاستنزاف حين صدت قواتها محاولة العدو لاقتحامها، وشاهدنا آثار الدمار على الجزيرة .

كما قمنا بزيارة لقواعد صواريخ سام/ ٣ والتى تم بناؤها فى ملحمة عظيمة ساهمت فيها كل أسلحة الجيش البرية والدفاع الجوى والقوات الجوية، ولعب فيها جمال مصر دوراً بطوليا . وكان يشرف على تشغيل الصواريخ طاقمًا مصريا مائة بالمائة، وشرحوا لنا كيفية تشغيلها وإمكانياتها ومدى الدقة فى إصابة الهدف، وتذكرت اليوم الذى صمم فيه جمال عبد الناصر على السفر إلى الاتحاد السوفييتى لتزويدنا بهذه الصواريخ فى الوقت الذى كان فيه مريضًا وفى أشد الحاجة إلى الراحة .

وكنا قد قمنا بجولة فى السويس وبور توفيق وشاهدنا مدى الدمار الذى ألحقته الغارات الجوية الإسرائيلية فى محاولة وقف بناء مواقع الصواريخ، وتبين لنا مدى أهمية تلك المواقع فى حماية سماء الجبهة وسماء مصر من تلك الغارات .

وقبل العودة إلى القاهرة قمنا بزيارة لإحدى القواعد الجوية فلمسنا الجهد الشاق، والتدريب المتواصل الذى أوصل قواتنا الجوية إلى أعلى مستوى من الكفاءة

القتالية وكانت الروح المعنوية والقتالية للطيارين عالية جدا مثل بقية القوات التى زرناها فى هذا اليوم .

ثم سافرت بعد ذلك المجموعة الأولى من الوزراء كما سبق أن أوردت ويوم رجعوا كان جمال عبد الناصر فى رحاب الله .

□ الفصل العاشر □

وقائع الزيارة الأخيرة

بعد ظهر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م اتصل بى السيد فؤاد عبد الحى من السكرتارية الخاصة للرئيس جمال عبد الناصر، وقال لى إن الدكتور الصاوى موجود عند الرئيس ويطلب حضورك فوراً لأن الرئيس متعب.

وتوجهت فى الحال إلى منزل الرئيس ووصلت فى الرابعة وخمسين دقيقة، وبعدى بدقائق وصل الدكتور زكى الرملى الذى كان الدكتور الصاوى قد استدعاه أيضًا.

أبلغنى الدكتور الصاوى فى كلمات سريعة موجزة أن الرئيس قد أحس بالتعب أثناء توديعه أمير الكويت فى المطار، وأنه قام بفحصه وأجرى له رسمًا كهربائيا للقلب وتبين وجود جلطة جديدة فى الشريان التاجى مصحوبة باضطراب فى ضربات القلب، وأنه بدأ العلاج فوراً.

دخلت حجرة الرئيس فوجدته راقداً على سريره مرتديًا البيجامة، كان يبدو عليه الإرهاق الشديد، وكان متعبًا من ضربات القلب، ولكنه كان رابط الجأش لا تبدو عليه أية أعراض للقلق.

بادرنى مبتسمًا حين رآنى: «إزاى عرفوا يجيبوك دلوقت؟؟».

ثم استطرد مشيراً إلى الأسبوع الذى قضاه فى مؤتمر القمة فى الهيلتون «الحقيقة انهم تعبونى جدا فى الأيام اللى فاتت».

قمنا بفحص الرئيس واطلعنا على رسومات القلب التى أجريت له على الفور، واتضح لنا من الفحص الإكلينيكى الذى وقعه كلا منا وكذا دراسة الرسومات الكهربائية للقلب أن الرئيس جمال عبد الناصر قد أصيب بجلطة حديثة فى الشريان

التاجى للقلب مصحوبة باضطراب فى ضربات القلب، واستمر العلاج المركز وكان جمال عبد الناصر قد أصيب بجلطة فى الشريان التاجى فى ١١ سبتمبر من العام الماضى كما سبق أن أوردت.

كنا ـ فريق الأطباء ـ نخرج وندخل كثيراً بين غرفة نومه وبين حجرة مكتبه الملاصقة، حيث كنا نحتفظ بجميع الأجهزة والاستعدادات لعلاج جلطة الشريان التاجى إثر إصابته بالنوبة الأولى قبل عام.

كانت وجوهنا جادة تعكس التفكير والتركيز، بينما ظل جمال عبد الناصر على هدوئه مسيطراً على أعصابه.

لم يسألنى ما الخبر؟ ولم يستفسر عما أصابه، فلقد كان يعرف.. وأظنه أراد أن يفسح لنا المجال لنؤدى واجبنا دون أسئلة منه.

ولكنى أذكر أنه قال لى وأنا منهمك فى علاجه: «أنا مش حارقد المرة دى.. أنا عندى مواعيد وشغل كتير الفترة اللى جاية».. قالها وجهاز رسم القلب لم يزل متصلاً بذراعيه وساقيه.

وفى تمام الساعة الخامسة مد جمال عبد الناصر يده إلى جهاز الراديو بجانب سريره، واستمع إلى موجز نشرة الأخبار من إذاعة القاهرة وقال: «مافيش حاجة». ثم طلب قفل الراديو واستطرد: «نيكسون كان عامل لى مظاهرة فى نابولى وكنت عايز أعرف إيه الأخبار».

وكان نيكسون قد حضر بنفسه إلى نابولى لحضور مناورة تقوم بها أقوى قطع الأسطول السادس، وذلك من باب التهديد لجمال عبد الناصر.

وفى الوقت نفسه كان جمال عبد الناصر يريد أن يعرف ردود الفعل الخارجية لمؤتمر الهيلتون، وكان قد سأل وزير الإعلام عن ذلك من قبل.

تحسنت ضربات القلب، وقال جمال عبد الناصر: «الحمد لله.. أنا دلوقت استريحت».

وكانت تلك هى آخر كلماته.

فما هى إلا لحظات وتوقف القلب فجأة.

لم يستجب قلب جمال عبد الناصر إلى محاولاتنا البائسة بالتدليك وبالصدمات الكهربائية ليعود إلى نبضه .

وأدركت أن الأمر قد قضى . . وأن جمال عبد الناصر أصبح فى رحاب الله . .

وكان جمال عبد الناصر متنبهًا طول الوقت ولم يدخل فى غيبوبة من أى نوع حتى الوفاة .

وقد ترددت إشاعات كثيرة حول وفاة جمال عبد الناصر نشر بعضها فى الصحف المحلية والبعض الآخر فى الصحف العربية ، من هذه الشائعات أن جمال عبد الناصر توفى بغيبوبة نتيجة نقص السكر فى الدم ، ومنها أيضًا أنه مات مسمومًا ، وكما سبق أن أوردت فقد أشيع أن جمال عبد الناصر قد مات مسمومًا نتيجة تدليكه بمادة سامة بطيئة المفعول بواسطة طبيب للعلاج الطبيعى اندس بين فريق الأطباء المعالجين ، وكان مروجى هذه الشائعات أشخاص من غير الأطباء أو للأسف أطباء لم يشتركوا فى علاج جمال عبد الناصر أو كانوا بجواره ساعة الوفاة .

وكان جمال عبد الناصر قد أمضى قبل ذلك فترة مشحونة بالتوتر والانفعالات أثناء انعقاد مؤتمر القمة العربى فى فندق الهيلتون لوقف إطلاق النار بين الأردن والمقاومة الفلسطينية .

وخرجنا من حجرته ليدخل إليه أبناؤه فى وداع أخير .

نزلنا إلى الصالون الذى كان جمال عبد الناصر يستقبل زواره ، وسألنى أنور السادات : هل أوصى الرئيس بشىء . . ؟ فقلت : لا .

ثم مال على حسين الشافعى وقال له : ما العمل بالنسبة لكيان الدولة؟ وأعقب ذلك باقتراح أن ينعقد مجلس قيادة الثورة .

ولكن الرأى انتهى إلى الأخذ باقتراح هيكل أن ينعقد اجتماع مشترك للجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء .

وانعقد الاجتماع فى المساء وحضر معظم الوزراء من الجبهة مباشرة حيث كانوا فى زيارة هناك حسب تعليمات جمال عبد الناصر ، كان الجميع واجمًا من هول

الصدمة ، حضرت الاجتماع ، وكان معى الدكتور زكى الرملى ، وأعلنت التقرير الطبى وسبب وفاة الرئيس ثم انصرفت .

وكانت الإذاعة والتليفزيون قد بدءا منذ رحيل جمال عبد الناصر يذيعان آيات متصلة من القرآن الكريم ، وأحس الناس بأن شيئًا خطيراً وقع ، ولكن لم يتصور أحد أن جمال عبد الناصر الذى ملأ حضوره العالم كله قد رحل عن الدنيا .

وفى السابعة والنصف ظهر أنور السادات يعلن النبأ الجلل .

وما أن انتهى من أول جملة فى بيانه حتى عم البكاء كل شوارع مصر ، ونزل الخبر على شعبها نزول الصاعقة .

زحفت الجماهير إلى بيت عبد الناصر فى منشية البكرى ، وحين سرى بينها الخبر أن الرئيس قد نقل إلى قصر القبة تحولت الجماهير إلى هناك وانتشرت حول القصر من كل جانب وسدت الشوارع المؤدية إليه .

وباتت جماهير شعب مصر ليلتها حول القصر تحيط بجمال عبد الناصر .

وفى كل الدول من المحيط إلى الخليج كان تصرف الشعوب العربية عنيفًا إزاء النبأ ؛ خرجت الجماهير فى كل مكان إلى الشارع مفجوعة فى رحيل بطلها ، وفى بيروت ظلت طلقات الرصاص تدوى طوال الليل تعبيراً عن الحزن ورمزاً للحداد .

وأعلن عن تشييع جنازة جمال عبد الناصر يوم الأول من أكتوبر ١٩٧٠ لإتاحة الفرصة لرؤساء الدول الراغبين فى المشاركة فيها بالحضور .

وعلى مدى ثلاثة أيام عاشتها مصر والحزن والصمت يخيمان عليها ، توافد إليها رؤساء الدول العربية ، والدول الصديقة فى أوروبا ، وآسيا ، والاتحاد السوفييتى ، ووفود تمثل حكومات معظم دول العالم .

وفى أول أكتوبر ١٩٧٠ كانت مصر حديث العالم كله ومحط أنظاره ، بينما إذاعاته وشبكات التليفزيون فيه تنقل على الهواء صورة حية لشوارع القاهرة .

كان مشهد غير مسبوق لتعبير شعب عن الحب والوفاء لزعيمه ولخروج أمة فى وداع قائدها .

فما أن طلعت شمس ذلك اليوم إلا وكانت القاهرة كبحر من البشر، زاد على ملايينها ملايين أخرى من المواطنين جاءوا إليها بالقطارات والسيارات وبكل أنواع المواصلات، بدأ الآلاف منهم مسيرتهم إلى العاصمة من ليلة أول أكتوبر سيراً على الأقدام ليكونوا فيها فى الصباح.

كان شعب مصر ملء شوارعها ليعبر عن حبه لزعيمه فى رحلته الأخيرة، وظهرت فى سماء القاهرة طائرة هليكوبتر تقل جثمان الزعيم من قصر القبة إلى الجزيرة لتخرج جنازته من المبنى الذى كان مقرا لمجلس قيادة الثورة.

كانت الجماهير مصطفة على طول الطريق من مبنى مجلس الثورة فى الجزيرة إلى جامع عبد الناصر فى مصر الجديدة وكان النظام يبدو دقيقًا.

وخرجت عربة مدفع من مبنى مجلس قيادة الثورة تحمل النعش ملفوفًا فى علم الجمهورية العربية المتحدة، ومن خلفها مباشرة سار أبناؤه يليهم رؤساء الدول المشاركة فى الوداع المهيب.

وسارت الجنازة وسط نحيب الجماهير إلى كوبرى قصر النيل، وما أن تعدت الكوبرى واتجهت إلى شارع النيل أمام فندق هيلتون حتى هجمت الجماهير تربت بأيديها على النعش لتلمسه للمرة الأخيرة.

كانت الجنازة تكاد لا تسير من فرط الازدحام وتدافع الجماهير على عربة المدفع.

وبعد ساعات ولت الجنازة إلى منطقة غمرة، وبدأ واضحًا أن النعش الذى تم تغيير العلم الذى يلفه عدة مرات خلال هذه الفترة لن يصل قبل الليل، فتم نقله إلى عربة مدرعة.

ولكن الجماهير ظلت من حول الرئيس تحيط بالعربة المدرعة حتى وصل إلى جامع عبد الناصر بعد الظهر.

وشيع جمال عبد الناصر إلى مثواه الأخير فى وداع لم يسبق له مثيل فى تاريخ مصر الحديث.



عبد الناصر.. الإنسان

لا يكتمل عن جمال عبد الناصر حديث ما لم يتعرض لجانب أساسى وهو صورة جمال عبد الناصر بعيداً عن السياسة، وربما لا أتجاوز إن قلت إن ذلك هو المدخل الصحيح لفهم الكثير عن شخصية جمال عبد الناصر.

فمن لم يعرف جمال عبد الناصر من قرب لا يرى فيه سوى زعيم قوى، وإرادة حديدية، وقائد يتحدث من وراء ميكروفون. تلك هى الصورة الشائعة عن جمال عبد الناصر عند من لم يعرفوه، مؤيدين كانوا أو معارضين.

فمؤيدوه يرون فيه القوة والحسم، يعجبون بولائه للجماهير فى وطنه وإخلاصه فى العمل من أجلهم، والتزامه بقضاياهم، يضربون المثل بوطنيته ويشيدون بابتعاده فى حياته الشخصية عن الترف وحصانته ضد الزلل.

ومعارضوه يرونه دكتاتوراً قوياً وحاكماً بأمره، ويدفعون إلى آخر المدى بمقولة إن الحاكم مسئول عن جميع الأخطاء التى تقع فى عهده.

ولست هنا بصدد تقييم عبد الناصر حاكماً، ولكن مما لا شك فيه أن المقارنة بين إنجازات عبد الناصر على الخريطة السياسية والاجتماعية فى مصر والعالم العربى، وبين أخطاء عهده، ترجح كفة الأولى وتؤكد أن الرجل عاش عصره وكان من أبرز أعلامه.

فحديثى فى هذا المقام سوف يقتصر على البعد الغائب فى الصورة الشائعة لجمال عبد الناصر، وأظن هذه الصورة ناقصة عند مؤيديه، خاطئة عن معارضيه، فهى فى الحالتين تنقصها الحياة، وتفتقد نبض عبد الناصر الإنسان، وأستطيع القول إننى رأيت من قرب هذا البعد الأساسى فى جمال عبد الناصر بحكم مهنتى كطبيب لازمته لفترات طويلة.

كان عبد الناصر قويا فى إرادته، قاسيا على نفسه، ملتزمًا بمبادئه فى تصرفه وفى حياته الشخصية فقد كان يعمل ليلاً ونهاراً دون أن يعرف طعمًا للراحة أو يشعر بمرور الوقت.

وكانت حجرة نومه مكدسة «بالدوسيهات» والأوراق فى كل مكان، ولكنها كانت دائمًا منظمة منسقة بفعل انضباطه وعسكريته، وبجوار سريره كان الراديو يذيع طوال النهار وحتى الساعات المتأخرة من الليل نشرات الأخبار التى كان يتابعها باهتمام سواء بالإنجليزية أو بالعربية.

وكان عبد الناصر لا يعترف بنظام عطلة نهاية الأسبوع، وإن كان يقول لى: إنه معجب بالرئيس تيتو؛ لأنه مواظب على منح نفسه إجازة من العمل فى نهاية الأسبوع مهما كانت الظروف.

وكان يذهب من آن لآخر للاستجمام إلى استراحة القناطر الخيرية التى كانت فى الأصل تابعة لتفتيش الرى، وبقيت فى عهد عبد الناصر دون أن يدخل عليها تغيير يذكر، ولكنه لم يكن ينقطع عن العمل هناك، وإنما كان يروح عن نفسه لساعة أو بعض الساعات بأن يتمشى فى حدائق القناطر بعد الظهر.

كما كان يذهب إلى استراحة المعمورة فى الإسكندرية فى فصل الصيف، ولكنه أيضًا كان يقضى وقته فى العمل المستمر، وحتى خلال الرحلات الخارجية كان لا يغادر غرفته إلا لحضور الاجتماعات الرسمية.

وحتى إثر إصابته بالأزمة القلبية الأولى أوصيناه بالراحة وبعدم التفكير، فقال: «يمكنكم أن تمنعونى من الحركة، ولكن لا يمكننى أن أوقف عقلى عن التفكير فيما حولى من مشاكل». وحين تماثل للشفاء واقترحت عليه أن يأخذ إجازة من العمل وأن يسافر إلى جزيرة بريونى فى يوغوسلافيا للاستجمام، لم تمكنه ظروفه من أن يفعل، فلقد كان يسابق الزمن لبدء معركة التحرير.

وكان ذهن عبد الناصر مشغولاً دائمًا بالمشكلات، وكان يقول لى ضاحكًا: «ربنا خلقنى للمشاكل». وأذكر قوله يوم أن علقت على كمية ما يفكر فيه من قضايا ومشكلات فى نفس الوقت: «أنا برتب المشاكل إلى آجلة وعاجلة. وبالطريقة دى لا أجعل المشاكل الآجلة تقلقنى كثيراً أو تلح على ذهنى طول الوقت، لتترك لى

مجالاً لأفكر فى المشاكل العاجلة التى تبقى ضاغطة على تفكيرى حتى أتخذ فيها القرار المناسب.

ونتيجة ضغط العمل المستمر لم يكن لدى عبد الناصر الوقت لهوايات يروح بها عن نفسه، ولكنه كان حريصًا على سماع السيدة أم كلثوم التى كان يقدرها، ويسألنى دائمًا عن صحتها. وحين بدأت السيدة أم كلثوم تشعر ببعض التعب فى إحدى المراحل طلب منى أن أقترح عليها أن تكتفى بأغنيتين فى الحفلة الواحدة بدلاً من ثلاث، ولما عرضت عليها وافقت وألغت الوصلة الثالثة، وكنت قد طلبت منها ذلك من قبل ولم تستجب لى.

وكان عبد الناصر حريصًا على متابعة الصحف اليومية وإبداء ملاحظات عليها لرؤساء التحرير، وأذكر أنه لاحظ إثر ثورة السودان عام ١٩٦٩ أن نشرت إحدى الصحف اليومية خبرًا عن الرئيس نميرى فى صفحة داخلية، فطلب من رئيس التحرير المزيد من الاهتمام بالسودان ونشر أخباره فى الصفحة الأولى.

ومن أبرز ما لمست فى جمال عبد الناصر أنه كان رب أسرة مثاليًا، برغم مشاغله الجمة التى كانت تستغرق معظم وقته، وكان يقول لى إن أسعد أوقاته هى تلك التى يقضيها مع السيدة حرمه وأولاده، وكان يحرص بقدر ما تسمح الظروف على أن يجتمعوا معًا على الغداء، وكان عبد الناصر يفضل الطعام الذى تقوم السيدة حرمه بطهيه بنفسها.

وكان جمال عبد الناصر شديد الحب لأولاده حريص على أن يراعى مشاعرهم، وأذكر أنه كان مريضًا فى الوقت التى وضعت فيه كريمته السيدة منى مولودها «جمال» فى مستشفى الدكتور على إبراهيم، فاتصل بالمستشفى، وطلب تأجيل خروجها لمدة يومين لحين شفائه حتى يزورها فى المستشفى، ويظهر معها فى الصورة على غرار ما فعل مع ابنته السيدة هدى حين وضعت ابنتها «هالة».

وبرغم الحب الشديد لأولاده فإنه لم يكن يقبل أى استثناء لهم، فابنته منى اضطرت لدخول الجامعة الأمريكية حيث لم يؤهلها مجموع درجاتها فى الثانوية العامة لدخول الجامعة المصرية، فى حين التحقت ابنته الكبرى هدى بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة بناءً على مجموع الدرجات الذى حصلت عليه.

وكان جمال عبد الناصر حريصًا على أن لا يقلق السيدة قرينته بكثرة مشاغله، وكان يخاف عليها لدرجة أنه حاول إخفاء مرضه عنها حين أصيب بالأزمة القلبية الأولى.

وقد روت لى السيدة حرم جمال عبد الناصر أنه حين تقدم لخطبتها ذهب لزيارة أسرتها بمنزلهم أولاً، حيث رآها وبعدها تحدد موعد الخطوبة كما هو متبع عادة، وحين قدم لها دبلة الخطوبة لاحظت أنه لم يكتب عليها تاريخ اليوم الذى تم فيه الاحتفال بالخطوبة، وإنما كتب عليها تاريخ الزيارة الأولى التى رآها فيها لأول مرة لأنه التاريخ الذى قرر الارتباط بها، وكانت لفتة رقيقة منه نحو شريكة حياته.

وكان عبد الناصر بارا بأهله وخصوصًا والده، وكان دائم السؤال عنه والاهتمام بصحته رغم كثرة مشاغله، كما كان حريصًا على شعور من يعمل معه.

وأذكر أنه فى صيف ١٩٦٧ لم يسافر إلى الإسكندرية كعادته كل سنة، واضطررت أن أبقى معه فى القاهرة.. ولكنه ظل يطلب منى مرارًا أن أسافر إلى الإسكندرية لعلمه بأن عائلتى هناك.

ومن الطريف أنه صمم فى إحدى المرات على أن أسافر إلى الإسكندرية «بالأمر» لأرى عائلتى، واتصل جمال عبد الناصر بمكتبه يسأل عن مكان وجودى ليطمئن على أننى قد سافرت، ولكن من تلقى رسالة عبد الناصر فى مكتبه فهم أنه يريدنى لمقابلته، فاتصل بمنزلى فى الإسكندرية طالبًا عودتى إلى القاهرة فور وصولى لأن الرئيس يطلبنى، وبالفعل عدت على الفور لأجد أن جمال عبد الناصر لم يكن يريد سوى أن يتأكد من سفرى إلى الإسكندرية.

وحدث أن مرض نجله عبد الحميد بالصفراء، وكان قد حضر من الإسكندرية للعلاج. واتصلوا بى فى العيادة بمجرد وصوله إلى القاهرة طالبين منى الحضور فورًا، وحين علم عبد الناصر اتصل بى بنفسه فى العيادة وطلب منى عدم الحضور إلا بعد أن أنتهى من الكشف على مرضاى المنتظرين فى عيادتى.

كما حدث أن مرض الرئيس السادات عام ١٩٦٩، وطلب منى أن أزوره للكشف عليه فى السادسة من بعد ظهر أحد الأيام، وفى صباح هذا اليوم كنت عند جمال عبد الناصر الذى علم منى أننى سأذهب لأنور السادات بعد الظهر، فاتصل بى الرئيس وطلب منه أن يغير الموعد لأننى فى السادسة أكون فى العيادة.

وخلال مرافقتى للرئيس فى رحلاته الخارجية كان لا يفوته وسط مشاغله أن يرتب لى زيارات لمعالم البلد الذى نزوره .

وحين مرض الدكتور أحمد ثروت الطبيب المرافق للرئيس، وتولى الدكتور الصاوى مهام عمله ، كان يطلب من الدكتور ثروت الحضور معنا يوميا حرصًا على شعوره ، رغم أنه كان لا ينفذ إرشاداته .

كان جمال عبد الناصر غنيا بالمشاعر والعواطف ، ولم تكن مشاغله تنسيه السؤال عن مريض يعرفه ، وحين أخبرته بمرض الدكتور السنهورى رئيس مجلس الدولة السابق - وبرغم الاختلاف السياسى بينهما فى أوائل الثورة - كان دائم السؤال عنه .

كما كان عبد الناصر شديد التأثر من المواقف اللاإنسانية وقد أصيب بالأزمة القلبية الأولى عقب المذبحة التى أدارها الإسرائيليون ضد خمسة من جنود خفر السواحل المتقدمة أعمارهم المسلحين بمجرد بنادق .

كان جمال عبد الناصر يولى اهتمامًا شديدًا لاحتياجات الشعب وقضاياه ، فقد كان دائم السؤال عن مدى توافر العلاج للقاعدة العريضة من الشعب ، وكان يطالب الوزراء والمسئولين دائمًا بتخفيض أسعار الدواء ، وبالفعل انخفضت أسعار المضادات الحيوية ، وظل سعر الدواء عمومًا فى مصر متمشيًا مع مستوى الدخل الفردى للأغلبية الكبرى من الناس .

وذات مرة أخذنا منه عينة دم وأرسلناها إلى ألمانيا مع الدكتور «فيفر» لإجراء تحليل معين هناك ، ولما علم عبد الناصر بعدم إمكان إجراء هذا التحليل لمرضى السكر فى مصر ، قرر بناء معهد لعلاج المواطنين من مرض السكر وإجراء التحاليل والأبحاث الحديثة الخاصة بهذا المرض .

وقد عرف هذا المعهد فيما بعد بمعهد ناصر .

وكان جمال عبد الناصر قد رشح الدكتور على البدرى مديرًا لهذا المعهد ، ولكنى اقترحت ترشيح الدكتور عبد الحميد مرتجى بدلاً منه لما له من خبرة سابقة فى بناء وتجهيز المستشفيات حيث إنه أشرف على بناء وتأسيس مستشفى المعادى وظل مديرًا له لفترة طويلة ، وقد وافق جمال عبد الناصر على هذا الترشيح .

ومن أسف أنه بعد رحيل جمال عبد الناصر توقف إنشاء هذا المبنى ستة عشر عامًا، ولم يكتمل بناؤه إلا فى عام ١٩٨٧ وفى عهد الرئيس حسنى مبارك.

وفى أعقاب إصابة جمال عبد الناصر بالجلطة الأولى جهزنا خلال فترة الراحة التى خضع لها جمال عبد الناصر غرفة إنعاش فى حجرة بالدور العلوى بمنزله لمواجهة أى طارئ، وحين علم عبد الناصر بذلك طلب أن نجهز غرفة إنعاش للمواطنين فى قصر العينى وفى الإسكندرية، وبالفعل كان لدينا اعتماد يسمح بذلك فى القصر العينى، أما بالنسبة للإسكندرية فقد واجهتهم مشكلة التمويل، فأرسل الرئيس إلى الدكتور محمود صلاح الدين شيكًا من حساب التبرعات برئاسة الجمهورية بالمبلغ اللازم لعمل غرفة عناية مركزة فى مستشفى الإسكندرية الجامعى.

وكان جمال عبد الناصر بسيطًا يميل إلى المزاح، ولكنه لم يكن متساهلاً، فقد كان يمكن أن يغضب سريعًا فى بعض الأحيان وأن تصل تصرفاته إلى حد العنف إزاء محظورات لم يكن على استعداد أبدًا لأنصاف الحلول بشأنها أو التساهل إزاءها، مثل خيانة المبدأ، أو خيانة الأمانة، أو استغلال المركز، أو تعدى الحدود.

وكمثال لهذه الحالة الأخيرة - تعدى الحدود - فقد حدث أثناء سفرنا بالطائرة إلى الرباط لحضور مؤتمر القمة العربى، أن كان من المفروض أن يجلس مع الرئيس فى الجزء الأمامى من الطائرة كل من السيد محمود رياض وزير الخارجية، والفريق أول محمد فوزى وزير الحربية، والسيد محمد حسنين هيكل وأنا، ولكن الرئيس لاحظ بعد فترة من الطيران أن أحد كبار موظفى رئاسة الجمهورية من أعضاء الوفد فى المؤتمر قد دخل إلى الجزء الأمامى مخالفًا التعليمات، ودون أن يشعر به الرئيس فما كان من عبد الناصر إلا أن أمر برجوعه إلى القاهرة فور وصولنا الرباط.

وكان جمال عبد الناصر لا يقبل التحدى فقراره بتأميم شركة قناة السويس عقب سحب البنك الدولى عرضه بتمويل السد العالى خطوة سياسية محسوبة وغير مسبوقة فى العالم الثالث، ولكنها شاهد على رفضه التحدى.

وذات مرة كنا فى القناطر الخيرية خلال تصاعد حرب الاستنزاف، وقام الإسرائيليون بغارات مركزة على مدن القناة ردا على عمليات العبور لقواتنا المسلحة فى سيناء، فقال الرئيس: إنه لابد أن نواجه التصعيد بالتصعيد وعلى قواتنا الجوية أن تتعامل مع المواقع الإسرائيلية فى سيناء... ورد السيد على صبرى - وهو ضابط

طيار أصلاً ـ بألا داعى لذلك فى هذه المرحلة . ولم يعلق عبد الناصر ، وبعد يومين طالعتنا الصحف بأنباء إغارات قواتنا الجوية على أهداف العدو فى سيناء ، لم يقبل عبد الناصر معارضة على صبرى فقد كان يرى ضرورة القيام بهذه الغارة تصعيداً للموقف مع إسرائيل .

وكان جمال عبد الناصر يضيق صدراً بالمناقشات غير الموضوعية والتى كثيراً ما تقع فى الاجتماعات التى يحضرها ، وكان يقول لى : «فيه ناس بتحب تتكلم لمجرد الكلام» . وكان بطبيعته لا يؤمن بأهمية اللجان وكان يقول : «أى موضوع عايز تركنه حوله على لجنة» .

وكان عبد الناصر يعلم أن الكثيرين يخشون معارضته فى الرأى ، وفى مرة سألته : «هل ستعين فلانًا رئيسًا للجامعة؟ فأجابنى : مش حاعينه . . أنا عايز واحد يعرف يقول لا» . وكم أثيرت قضية أهل الثقة فى مواجهة أهل الخبرة ذوى الآراء الصائبة ، ولكن غير المسموعة نتيجة مواقفهم غير المتعاونة مع الثورة ، ولم يكن عبد الناصر مسئولاً عن ذلك وحده .

وكان جمال عبد الناصر يؤمن بالقومية العربية ، وبضرورة أن يكون للعرب سياسة متحررة وكيانًا مؤثرًا حتى يمكنهم التحرر وامتلاك ثرواتهم فى مواجهة الأطماع المنظمة ضدهم ، وكان عبد الناصر مؤمنًا بحتمية الوحدة العربية وبالرغم من تأثره نفسيا وصحيا من وقوع الانفصال عام ١٩٦١ ، فلقد استفاد من تجربة الوحدة المصرية السورية التى استعجلها السوريون خشية وصول الضباط الشيوعيين إلى الحكم فيها ، وأصبح مفهوم الوحدة لديه يقوم على مضامين سياسية واقتصادية ، وصار الطريق إليها يقوم على أساس التدرج .

كان جمال عبد الناصر مؤمنًا بالله وبقدره ، وكان يتحامل على نفسه فى أداء رسالته باذلاً الجهد ما يفوق طاقة البشر رغم علمه بخطورة مرضه ، وكان يقول : «تلك إرادة الله وهذا قدرى» .

وشاء قدره أن يتم عبد الناصر البناء لتحقيق أمله الكبير فى إزالة آثار العدوان وتحرير الأرض ، ثم يرحل قبل أن يرى نتائج غرسه .

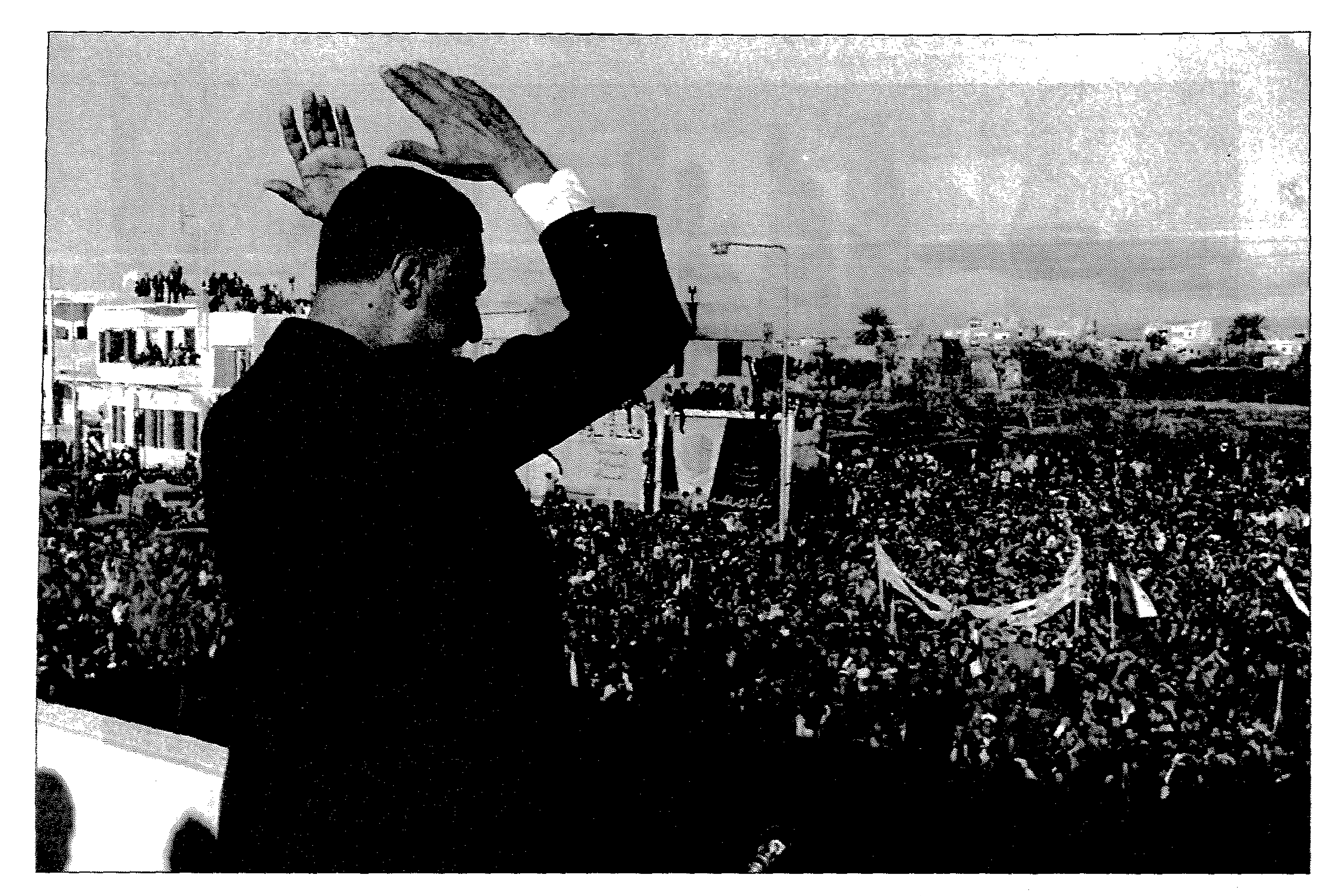


ملحق الصور





مع رفاق الثورة، من اليمين: عبد الحكيم عامر، صلاح سالم، عبد الناصر، عبد اللطيف البغدادي.١٩٥٣م



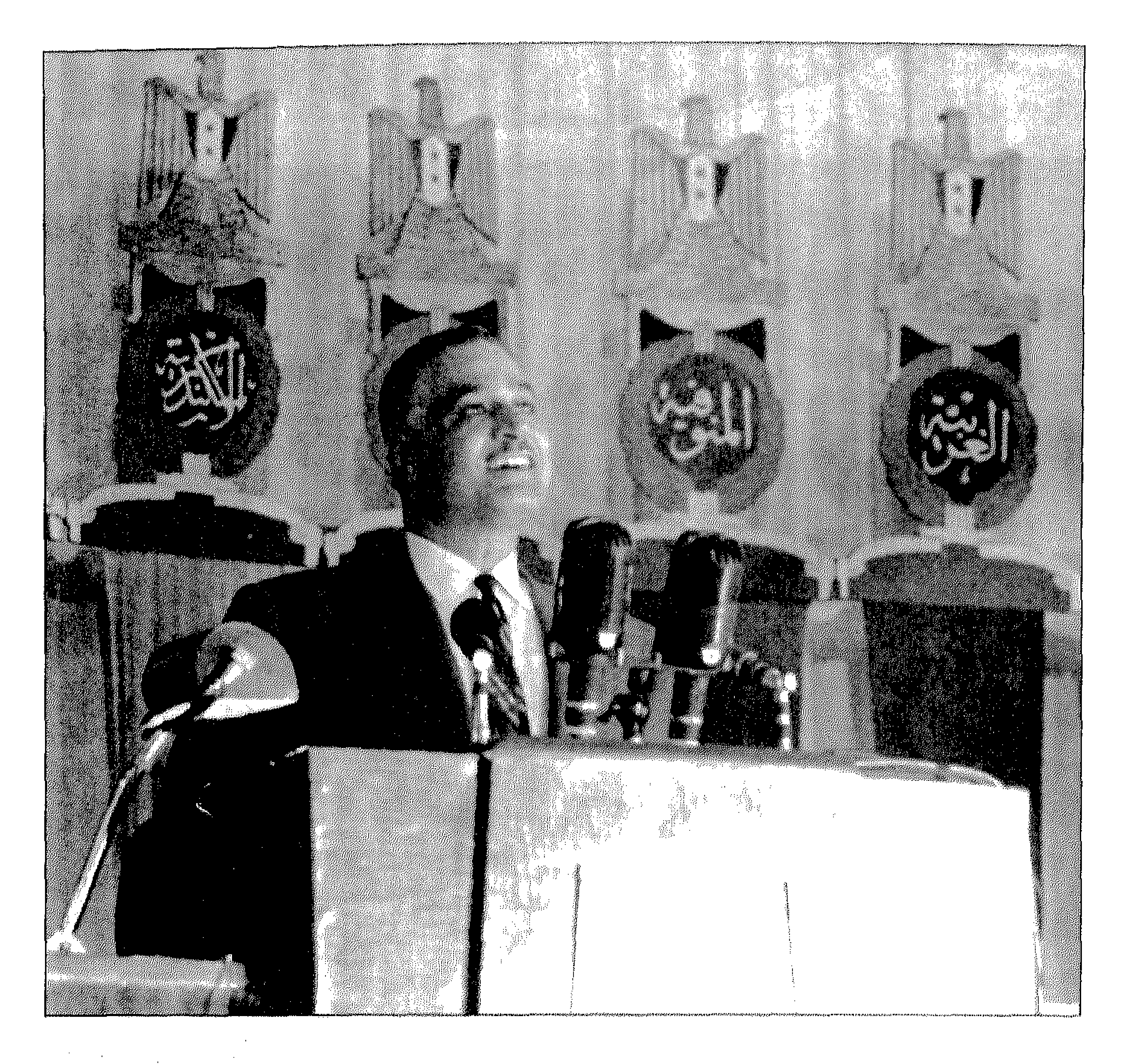
خطاب عبد الناصر في نادى الضباط باللاذقية حول تجربة الوحدة في ثلاث سنوات. ٢٠/٢/١٩٦١م



عبد الناصر يشهد العرض العسكري المقام احتفالاً بالعيد التاسع للثورة، ٢٣/٧/١٩٦١م



لطالما كان القائد دائمًا بين جماهيره. ١٩٦٢/٢/٥م



خطاب عبد الناصر في احتفال الاتحاد الاشتراكي بالعيد العاشر للثورة، ٢٢/٧/١٩٦٢م



مع رفيقة عمره السيدة تحية كاظم.



عبد الناصر مع أبنائه. من اليسار: منى، هدى، عبد الحميد، خالد، عبد الحكيم. ١٩٦٣/٣/٣٠م



السد العالي اعظم مشروعات الثوره. ١/٦/١١١١م



إستقبال أحمد بن بيلا رئيس الجزائر بمطار القاهرة لحضور مؤتمر القمة العربي، ١٢/١/١٩٦٤م



في وداع الرؤساء العرب بمطار القاهرة عقب انتهاء اجتماعات مؤتمر القمة العربي، ١٩٦٤/١/١٧م



خطاب عبد الناصر في مؤتمر أقطاب عدم الانحياز المنعقد بالقاهرة. ١٩٦٤/١٠/٥م



عبد الناصر في مشفى تسخالطوبو بالاتحاد السوفيتي. ١٢/٨/١٩٦٨م



عودة عبد الناصر من تسخالطوبو بعد إتمام العلاج. ١٩٦٨/٨/١٧م



عبد الناصر مع أفراد القوات المسلحة على جبهة المواجهة في ثاني أيام
عيد الأضحى المبارك. ١٩٦٩/٣/٢م



عبد الناصر بين أبنائه من جنود القوات المسلحة.



عبد الناصر يتحدث إلى أحد الجنود في أثناء حرب الاستنزاف، ١٩٦٩/٣/٢م



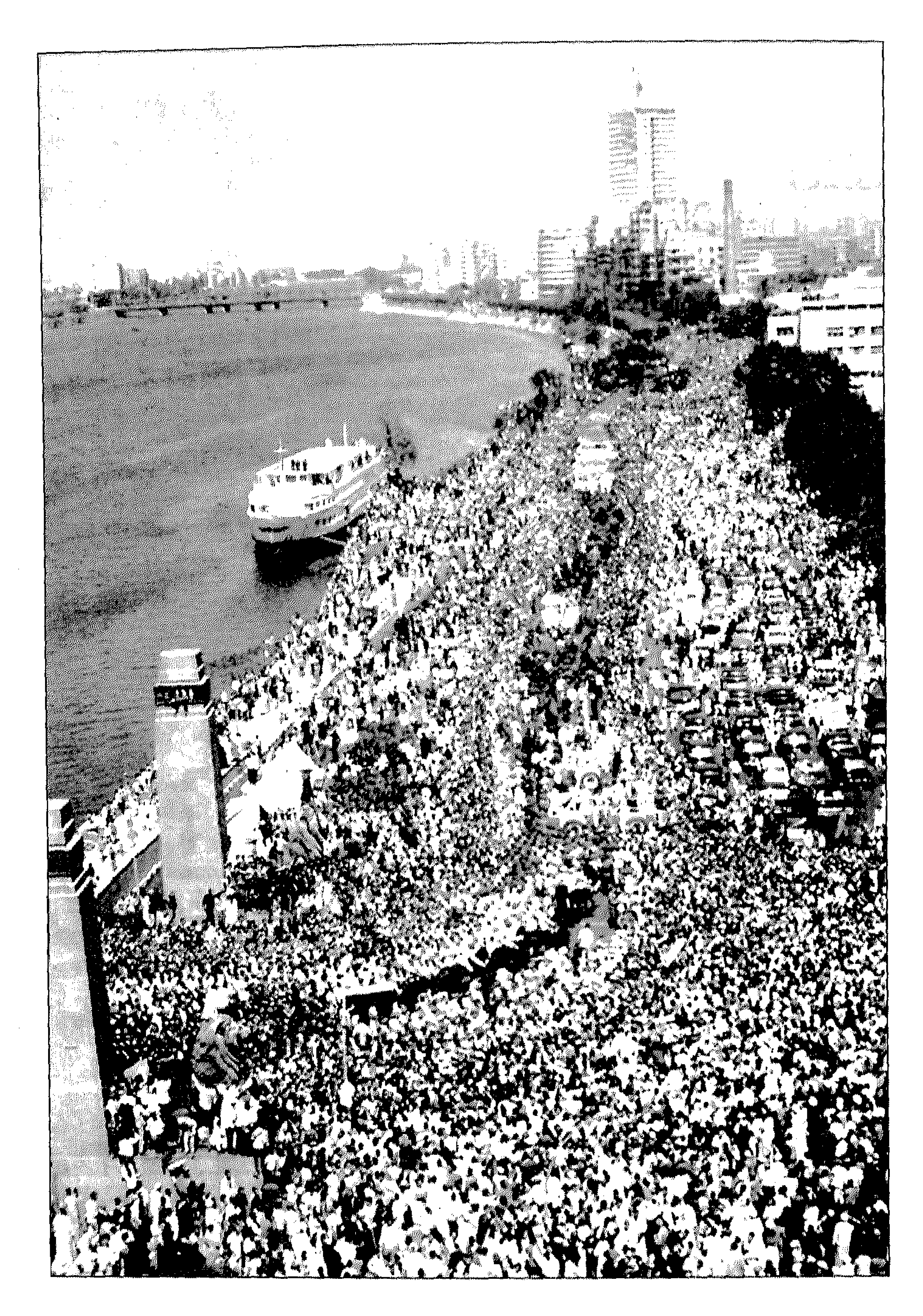
بين صفوف الجنود يتابع النتائج المحققة في معارك الاستنزاف، ويرافقه اللواء محمد فوزي وزير الحربية. ١٩٦٩/٧/٢١م



استقبال القائد الليبي معمر القذافي للرئيس عبد الناصر والرئيس السوداني جعفر النميري.
٢٧/١٢/١٩٦٩م



في مؤتمر القمة العربي بالخرطوم مع الملك فيصل بن عبد العزيز. ٢/٩/١٩٦٧م



الجماهير العربية تودع زعيمها وقائدها. ١٩٧٠/٩/٣٠م

المحتــوى

رقم الإيداع ٢٦٨٦ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 0695 - 6

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ ٨١٧٢١٣ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



تأليف أ.د. منصور فايز

ربما لم تنل شخصية تاريخية من جدل مثلما نالت شخصية الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر، هذا الجدل الذى لا زالت أصداؤه تتردد حتى الآن حول جوانب شتى من حياته وسياساته، ومن أبرز تلك الجوانب الجدل الدائر حول حقيقة مرضه وتطوره وسبب وفاته، بل لقد بلغ الجدل حد إدعاء البعض تأثر قرارات الرئيس بحالته الصحية بغرض التشكيك فيها أو التقليل من أهميتها ، وهنا كان لزاماً على الذين لمسوا جانب حالته الصحية عن قرب أن يقدموا شهادة حق ويسجلوا الحقائق المتصلة بحالته الصحية وتطورها ، والدكتور منصور فايز هو أحد الأطباء المعالجين للرئيس جمال عبد الناصر منذ عام ١٩٦٣ وحتى رحيله، عايش عن قرب أحداثاً لها وقعها الكبير فى تاريخ مصر والعالم، كذلك كان طبيباً للعديد من السياسيين البارزين قبل ثورة ١٩٥٢ وبعدها .

تقرأ فى هذا الكتاب :

- كيف كانت حرب ١٩٦٧ نتيجة حتمية لتناقض المصالح بين ثورة يوليو ١٩٥٢ والقوى المعادية لها بعد إختيارها الرافض للتبعية إزاء الشرق أو الغرب.
- هل كانت مصر ستتجنب حرب ١٩٦٧ لو لم يتخذ عبد الناصر قراراً بغلق خليج تيران أمام الملاحة الإسرائيلية ؟
- كيف تمت إعادة هيكلة القوات المسلحة عقب هزيمة ١٩٦٧بحيث أعيد بناء الجيش فى غضون ٣ سنوات من الحرب.
- كيف استقبلت جماهير الخرطوم عبد الناصر فى أغسطس ١٩٦٧.
- كيف كانت حرب الإستنزاف ١٩٦٧ - ١٩٧٠ أولى الحروب التى تهزم فيها إسرائيل بشهادة مؤرخيها.
- كيف استغل جمال عبد الناصر مبادرة روجرز ١٩٦٩ لدفع حائط الصواريخ المصرى إلى حافة مياه القناة تمهيداً لمعركة التحرير.
- كيف أصر عبد الناصر على مخالفة تعليمات الأطباء المشددة بالراحة ومواصلته العمل ليل نهار حتى وفاته قائلاً : " تلك إرادة الله وهذا قدرى".

السيرة الشخصية للمؤلف

- ولد في ١٥ ابريل عام ١٩١٤ بمدينة المنصورة، حيث عاش بها حتي إلتحاقه بالجامعة.
- تخرج من كلية طب القصر العيني بجامعة القاهرة (فؤاد الأول).
- شغل منصب أستاذ ورئيس قسم الأمراض الباطنة بكلية طب القصر العينى جامعة القاهرة.
- اختاره الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عام ١٩٦٣ للإشراف على علاجه، وظل يشغل هذا الموقع حتى انتقل عبد الناصر إلى رحاب الله عام ١٩٧٠.
- حصل على وسام الدولة من الطبقة الأولى للعلوم والفنون عام ١٩٧٩.
- شغل منصب أول رئيس للجمعية المصرية للأمراض الباطنة.
- توفي إلى رحمة الله في ٤ مارس عام ١٩٩٤.

بيت العرب للتوثيق العصرى والنظم